الكتاب الرابع
الشعر والشعراء

١ — قصص وتاريخ

نظن أن أنصار القديم لا يطمعون منا فى أن نغير لهم حقائق الأشياء ، أو أن نسمى هذه الحقائق بغير أسمائها ، لنبلغ رضاهم ونتجنب سخطهم . ومهما نكن حراصاً على أن يرضوا ، ومهما نكن شديدى الكره لسخطهم ، فنحن على رضا الحق أحرص ، وللعبث بالحق والعلم أشد كرهاً .

ولن نستطيع أن نسمى حقًّا ما ليس بالحق ، وتاريخاً ما ليس بالتاريخ . ولن نستطيع أن نعترف بأن ما يروى من سيرة هؤلاء الشعراء الجاهليين وما يضاف إليهم من الشعر تاريخ يمكن الاطمئنان إليه أو الثقة به ، وإنما كثرة هذا كله قصص وأساطير لا تفيد يقيناً ولا ترجيحاً ، وإنما تبعث فى النفوس ظنوناً وأوهاماً . وسبيل الباحث المحقق أن يستعرضها فى عناية وأناة وبراءة من الأهواء والأغراض ، فيدرسها محللا ناقداً ، مستقصياً فى النقد والتحليل ؛ فإن انتهى من درسه هذا إلى حق أو شىء يشبه الحق أثبته محتفظاً بكل ما ينبغى أن يحتفظ به من الشك الذى قد يحمله على أن يغير رأيه ويستأنف بحثه ونظره من جديد .

ذلك أن أخبار الجاهليين وأشعارهم لم تصل إلينا من طريق تاريخية صحيحة ، وإنما وصلت إلينا من هذه الطريق التى تصل منها القصص والأساطير ؛ طريق الرواية والأحاديث ، طريق الفكاهة واللعب ، طريق التكلف والنحل . فنحن مضطرون أمام هذا كله إلى أن نحتفظ بحريتنا كاملة ، وإلى أن نقاوم ميولنا وأهواءنا وفطرتنا التى هى مستعدة للتصديق والاطمئنان فى سهولة ويسر . ونحن لا نعرف نصًّا عربيًّا وصل إلينا من طريق تاريخية صحيحة يمكن أن نطمئن إليها

قبل القرآن إلا طائفة من النقوش ، لا تثبت فى الأدب حقًّا ولا تنفى منه باطلا ، وهى إن أفادت فى تاريخ الرسم فذلك كل ما يمكن أن يؤخذ منها إلى الآن .

القرآن وحده هو النص العربى القديم الذى يستطيع المؤرخ أن يطمئن إلى صحته ويعتبره مشخصاً للعصر الذى تلى فيه ، فأما شعر هؤلاء الشعراء وخطب هؤلاء الخطباء وسجع هؤلاء الساجعين ، فلا سبيل إلى الثقة بها ولا إلى الاطمئنان إليها ، ولا سيما بعدما بسطنا لك فى الكتاب الثانى من الأسباب التى تدعو إلى الشك فى صحتها ، وبعد ما بسطنا لك فى الكتاب الثالث من الأسباب التى كانت تحمل الناس على التكلف والنحل .

وإذن فيجب أن يكون لمؤرخ الآداب العربية موقفان مختلفان : أحدهما أمام الأساطير والأقاصيص والأسمار التى تروى عن العصر الجاهلى والآخر أمام النصوص التاريخية الصحيحة التى تبتدئ بالقرآن .

وقد بينا لك فى الكتاب الماضى أن هذا ليس شأن الآداب العربية وحدها ، وإنما هو شأن الآداب القديمة كلها ، وضربنا لك الأمثال بالأدب اليونانى والأدب اللاتينى . ولولا أنا نحرص على الإيجاز لضربنا لك أمثالا أخرى لطائفة من الآداب الحية الحديثة ؛ فلكل أدب قسمه الصحيح وقسمه المتكلف ، ولكل أمة تاريخها الصحيح وتاريخها المنحول . ولسنا ندرى لمَ يريد أنصار القديم أن يميزوا الأمة العربية والأدب العربى من سائر الأمم والآداب . ومن الذى يستطيع أن يزعم أن الله قد وضع القوانين العامة لتخضع لها الإنسانية كلها إلا هذا الجيل الذى كان ينتسب إلى عدنان وقحطان ؟ كلا ! الجيل العربى كغيره من الأجيال ، خاضع لهذه القوانين العامة التى تسيطر على حياة الأفراد والجماعات .

للعرب خيالهم الشعبى ، وهذا الخيال قد جد وعمل وأثمر ، وكانت نتيجة جده وعمله وإثماره هذه الأقاصيص والأساطير التى تروى لا عن العصر الجاهلى وحده بل عن العصور الإسلامية التاريخية أيضاً . وقد رأيت فى فصولنا التى

سميناها « حديث الأربعاء » أنا نشك فى طائفة من هذه القصص الغرامية التى تروى عن العذريين وغيرهم من العشاق فى العصر الأموى . ويجب حقًّا أن نلغى عقولنا — كما يقول بعض الزعماء السياسيين — لنؤمن بأن كل ما يروى لنا عن الشعراء والكتاب والخلفاء والقواد والوزراء صحيح ؛ لأنه ورد فى كتاب الأغانى أو فى كتاب الطبرى أو فى كتاب المبرد أو فى سفر من أسفار الجاحظ . نعم ! يجب أن نلغى عقولنا وأن نلغى وجودنا الشخصى ، وأن نستحيل إلى كتب متحركة : هذا يحفظ الكامل لا يعدوه فيصبح نسخة من كتاب الكامل تمشى على رجلين وتنطق بلسان . وهذا يحفظ كتاب البيان والتبيين فيصبح نسخة منه ، وهذا يحفظ أخلاطاً من هذه الكتب فيصبح مزاجاً غريباً يتكلم مرة بلسان الجاحظ وأخرى بلسان المبرد وثالثة بلسان ثعلب ورابعة بلسان ابن سلام .

لأنصار القديم أن يرضوا لأنفسهم بهذا النحو من أنحاء الحياة العلمية . أما نحن فنأبى كل الإباء أن نكون أدوات حاكية أو كتباً متحركة ، ولا نرضى إلا أن تكون لنا عقول نفهم بها ونستعين بها على النقد والتمحيص فى غير تحكم ولا طغيان . وهذه العقول تضطرنا — كما اضطرت غيرنا من قبل — إلى أن ننظر إلى القدماء كما ننظر إلى المحدثين دون أن ننسى الظروف التى تحيط بأولئك وهؤلاء . فأنا لا أقدس أحداً من الذين يعاصرونى ولا أبرئه من الكذب والنحل ، ولا أعصمه من الخطأ والاضطراب ، فإذا تحدث إلىّ بشىء أو نقل لى عنه شىء ، فأنا لا أقبل حتى أنقد وأتحرى ، وأحلل وأدقق فى التحليل . وما أعرف أن أحداً من أنصار القديم أنفسهم يقدس المعاصرين ويطمئن إليهم من غير نقد ولا تبصر . وآية ذلك أنهم يحيون حياتهم اليومية كما يحياها أنصار الجديد ؛ فهم يبيعون ويشترون ويدّخرون كما يبيع غيرهم وكما يشترى وكما يدخر ، وهم يدبرون أمورهم الخاصة كما يدبرها سائر الناس فى مقدار من الذكاء والفطنة والحذر . فما بالهم يصطنعون ملكاتهم الناقدة بالقياس إلى المعاصرين ، ولا يصطنعونها بالقياس إلى القدماء ؟ وما بالهم إذا كانوا يحبون التصديق والاطمئنان إلى هذا الحد لا يصدّقون البائع حين يزعم لهم أن سلعته

تساوى عشرين ، بل يعرضون عليه عشرة وأقل من عشرة ويساومون حتى ينتهوا إلى ما يريدون ؟ ولو أنهم صدّقوا المحدثين واطمأنوا إليهم كما يصدقون القدماء ويطمئنون إليهم لكانوا مضرب الأمثال فى الغفلة والسفه والحمق ، ولكانت حياتهم كدّاً وضنكاً وعناء ، ولكنا نحمد لهم الله ؛ فهم بالقياس إلى معاصريهم أصحاب بصر بالأمور وفطنة بدقائقها وحيلة واسعة للتخلص من المآزق ، وهم يشترون اللحم كما نشتريه ، ويبذلون فى الخبز والسمن مثل ما نبذل .

وإذن فما مصدر هذه التفرقة التى يصطنعونها بين القدماء والمحدثين ؟ ما لهم ما لهم يؤمنون لأولئك ولا يشكون فى هؤلاء ؟

ليس لهذه التفرقة مصدر إلا هذه الفكرة التى تسيطر على نفوس العامة فى جميع الأمم وفى جميع العصور ، وهى أن القديم خير من الجديد ، وأن الزمان صائر إلى الشر لا إلى الخير ، وأن الدهر يسير بالناس القهقرى ، يرجع بهم إلى وراء ، ولا يمضى بهم إلى أمام . . .

زعموا أن القمحة كانت فى العصور الذهبية تعدل التفاحة العظيمة حجماً ، ثم غضب الله على الناس فأخذت القمحة تتضاءل حتى وصلت إلى حيث هى الآن[١] .

وزعموا أن الرجل من الأجيال القديمة كان من الطول والضخامة والقوة بحيث كان يغمس يده فى البحر فيأخذ منه السمك ، ثم يرفع يده فى الجو فيشويه فى جذوة الشمس ، ثم يهبط بيده إلى فمه فيزدرد شواءه ازدراداً[٢] .

وزعموا أن أهل الأجيال القديمة كانوا من الضخامة والجسامة بحيث استطاع

---

(١) يروى السيوطى فى كتابه « الأوج فى خبر عوج » (نسخة خطية بدار الكتب رقم ١٢٣ مجموعات ص ٤٢) أن بعض المفسرين قال إن عنقود العنب كان لا يحمله إلا أربعة رجال ينقلونه على لوح من الخشب بينهم ، وإن الرمانة تسع فى جوفها خمسة أو أربعة رجال . ويروى القرطبى فى تفسيره أن حبة القمح كانت ككلى البقر .

(٢) راجع كتاب عرائس المجالس للثعلبى ص ٤٦ طبع بولاق . وراجع هذا أيضاً فى كتاب « الأوج فى خبر عوج » للسيوطى .

بعض الملوك ، أو بعض الأنبياء ، أن يتخذ فخذ أحدهم جسراً يعبر عليه الفرات.

فالقديم خير من الجديد ، والقدماء خير من المحدثين ، يؤمن العامة بهذا إيماناً لا سبيل إلى زعزعته . وهذا الإيمان يتطور ويتغير ، ولكن أصله ثابت. فأصحاب الحضارة والمدنية الذين أخذوا من العلم بحظ لا يؤمنون بمثل هذه الأحاديث التي قدمتها لك ، ولكنهم يرون أن الأخلاق مثلا كانت أشد استيقاظاً فى العصور الأولى ، وأن الأفئدة كانت أشد ذكاء ، وأن الأبدان كانت أعظم حظًّا من الصحة . وعلى هذا النحو يكون تفضيل القديم ، لأنه قديم لا نراه من جهة ، ولأننا ساخطون بطبعنا على الحاضر من جهة أخرى .

فهل تظن أن الذين يثقون بخلف وحماد والأصمعى وأبى عمرو بن العلاء يثقون بهم لشيء غير ما قدمت لك ؟ كلا ! كان هؤلاء الناس أحسن من المعاصرين أخلاقاً ، وأقل منهم ميلا إلى الكذب ، كانوا أذكى منهم أفئدة ، وكانوا أقوى منهم حافظة ، وكانوا أثقب منهم بصائر ، لماذا ؟ لأنهم قدماء ، لأنهم كانوا يعيشون فى هذا العصر الذهبى . أليس العصر العباسى عصراً ذهبيًّا بالقياس إلى هذا العصر الذى نعيش فيه !

أما نحن فلا نزعم أن القدماء كانوا شرًّا من المحدثين ، ولكننا لا نزعم أيضاً أنهم كانوا خيراً منهم ، وإنما أولئك وهؤلاء سواء ، لا تفرق بينهم إلا ظروف الحياة التى تصور طبائعهم صوراً ملائمة لها دون أن تتغير هذه الطبائع . كان القدماء يكذبون كما يكذب المحدثون [١] ، وكان القدماء يخطئون كما يخطئ المحدثون[٢] . وكان حظ القدماء من الخطأ أعظم من حظ المحدثين ؛ لأن العقل لم يبلغ من الرقى فى تلك العصور ما بلغ فى هذا العصر ، ولم يستكشف من مناهج البحث والنقد ما استكشف فى هذا العصر . فإذا أخذنا أنفسنا بأن نقف أمام القدماء موقف الشك والاحتياط فلسنا غلاة ولا مسرفين ، وإنما نحن نؤدى لعقولنا حقها ، ونؤدى للعلم ما له علينا من دين . وإذا كنا

(١) عقد المبرد فصلا فى تكاذيب الأعراب فراجعه فى كتاب الكامل ص ٣٤٧ .

(٢) راجع فى هذا كتاب المزهر للسيوطى جزء ثانٍ ص ٢٤٨ وما بعدها وراجع أيضاً فى ذلك فصلا لأبى هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين جزء ٢ صفحة ٥١ طبع الآستانة سنة ١٣٢٠ .

نطلب إلى أنصار القديم شيئاً فهو أن يكونوا منطقيين ، وأن يلائموا بين حياتهم حين يقرءون ويكتبون ، وحياتهم حين يبيعون ويشترون .

وإذن فلنتناول مع الإيجاز الشديد شيئاً من البحث عن الشعر والشعراء فى العصر الجاهلى ؛ لنرى إلى أى شىء نستطيع أن نطمئن من هذه الأشعار والأخبار التى امتلأت بها الكتب والأسفار . ولنبدأ منهم بشعراء اليمن وربيعة .

٢ – شعر اليمن

وهل لليمن فى الجاهلية شعراء ؟

أما القدماء فلا يشكون فى ذلك ، وهم يحصون شعراء يمنيين يروون لبعضهم قصائد ، ولبعضهم مقطوعات ، ولبعضهم البيت أو البيتين ، ويروون لهم أخباراً تختلف طولا وقصراً ، وتتفاوت قوة وضعفاً . ولكنا نقف من هؤلاء الشعراء جميعاً ، لا نقول موقف الحيطة والشك بل موقف الرفض والإنكار . فأمر هؤلاء الشعراء قائم كله على خطأ أساسى ، أو قائم كله على تكلف قصد به إلى التضليل . ذلك أن القدماء زعموا ، أو خيل إليهم ، أن أهل اليمن عرب كغيرهم من العرب ؛ فيجب أن يكون حظهم من الشعر والشعراء كحظ غيرهم من أهل الحجاز ونجد . وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من أن يكون لكل قبيلة شاعرها أو شعراؤها ، ولا بد من أن تكون ألسنة اليمنيين فصيحة عذبة منطلقة بجيد الشعر ورديئه ، كما كانت ألسنة العدنانيين عامة والمضريين خاصة .

وقد كان يصح الوقوف عند هذا كله موقف الجد لولا ما قدمنا من المصاعب المادية التى تحول بيننا وبين ذلك ؛ فقد عرفت أن أهل اليمن كانوا يتكلمون لغة أخرى غير هذه اللغة القرشية التى قيل فيها شعر اليمنيين . وقد عرفت أن ليس من اليسير أن نفترض أن هؤلاء الناس قد استعاروا فى الجاهلية لغة قريش لأدبهم وما استحدثوا من شعر ونثر . ولو قد فعلوا شيئاً من ذلك لظهر

أثره فى هذه النقوش التى تركوها والتى استكشفت ، والتى عرضنا عليك طائفة منها . لو قد فعلوا لا تخذوا هذه اللغة القرشية لغة لتاريخهم وتخليد مآثرهم بالكتابة ، كما اتخذوها لغة لشعرهم وتخليد مآثرهم بالكلام . ولكنا لا نعرف نقشاً واحداً يمنيًّا كتب بلغة قريش ، أو بلغة تقارب لغة قريش ، أو بلغة يظهر فيها أقل تأثير للغة قريش . وإذن فكيف نستطيع أن نفهم أن يكون لأهل اليمن لغتان مختلفتان : إحداهما تتخذ فى الكلام والحوار وكتابة التاريخ وتخليد المآثر على العمارات والأبنية وتعامل الناس فيما بينهم وتقربهم إلى آلهتهم ، والأخرى تتخذ للشعر والسجع ، وللشعر والسجع وحدهما ؟

ونحن نعلم أنهم سيذكرون هذه القبائل اليمنية التى يقال إنها هاجرت نحو الشمال واستقرت فى الحجاز ونجد ، ونسيت لغة آبائها واتخذت لغة العدنانيين. ولكنك قد عرفت رأينا فى هذه الهجرة وما يحيط بها من شك وما تقوم عليه من وهم ، وعرفت أنها إن صحت كانت صحتها خطراً على نظرية القدماء ؛ لأنها تثبت أن القحطانيين هم المستعربة ، وأن العدنانيين هم العاربة ، وأن القحطانية هم الذين تعلموا العربية ونسوا لغة آبائهم بعد أن كان إسماعيل بن إبراهيم أول من تعلم العربية ونسى لغة أبيه . على أن فساد رأى القدماء فى هذا الشعر اليمانى لا يقف عند هذا الحد الذى بيناه ؛ فهم يروون شعراً عربيًّا قرشى اللغة واللهجة لقوم من اليمن لم يهاجروا إلى الشمال ولم يستوطنوا نجداً والحجاز ، وإنما استقروا حيث كان آباؤهم من الجنوب وحيث كانت السيطرة للغة الجنوب أو لغات الجنوب .

بل هم لا يكتفون بهذا ، وإنما يتجاوزونه إلى شىء نراه أعجوبة الأعاجيب ، ونرى أنه لو صح لاضطر اللغويين جميعاً إلى أن يغيروا نظرياتهم فى فقه اللغة ؛ فهم يروون شعراً لقوم عاصروا إسماعيل بن إبراهيم أو عاصروا أبناءه الأدنين .

ولو قد صح هذا الشعر لكانت هذه اللغة القرشية التى نزل بها القرآن من القدم وبعد العهد بحيث لا نظن ولا نتصور . ويكفى أن نقرأ هذا الشعر الذى يضاف إلى جرهم لنعرف أن هذا الأمر كله خلط واضطراب ، وأن

هذا الشعر الذى يضاف إلى الذين عاصروا إسماعيل إنما هو كشعر عاد وثمود وطسم وجديس ، لا قيمة له ولا غناء فيه ، صنعه القصاص صنعة وتكلفوه تكلفاً ، رغبة فى الفكاهة ، أو تزيين القصص ، أو تفسير ما يتصل ببناء الكعبة واختصام العرب حولها . انظر إلى هذا الشعر الذى يضاف إلى مضاض ابن عمرو وهو من أصهار إسماعيل :

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربع وسطه فجنوبه ... إلى المنحنى من ذى الأريكة حاضر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالى والجدود العواثر
وأبدلنا ربى بها دار غربة ... بها الذئب يعوى والعدو المخامر
أقول إذا نام الخلى ولم أنم ... أذا العرش لا يبعد سهيل وعامر
وبدلت منهم أوجهاً لا أريدها ... وحمير قد بدّلتها واليحابر
فإن تمل الدنيا علينا بكلكل ... ويصبح شر بيننا وتشاجر
فنحن ولاة البيت من بعد نابت ... نمشى به والخير إذ ذاك ظاهر
وأنكح جدى خير شخص علمته ... فأبناؤه منا ونحن الأصاهر
وأخرجنا منها المليك بقدرة ... كذلك يا للناس تجرى المقادر
فصرنا أحاديثاً وكنا بغبطة ... كذلك عضتنا السنون الغوابر
وسحت دموع العين تبكى لبلدة ... بها حرم أمن وفيها المشاعر
ويا ليت شعرى من بأجياد بعدنا ... أقام بمفضى سيله. والظواهر
فبطن منى أمسى كأن لم يكن به ... مضاض ومن حَبَّىْ عدىّ عمائر
فهل فرج آت بشىء نحبه ... وهل جزع منجيك مما تحاذر[1]

فلو صح هذا الشعر لكانت اللغة التى تعلمها إسماعيل بن إبراهيم من أصهاره الجرهميين قبل الإسلام بأكثر من خمسة عشر قرناً هى هذه التى تراها فى هذا الكلام سهلة لينة ، لا شدة فيها ولا تعب ، مستقيمة قواعد النحو

(١) الأغانى ج ١٣ ص ١١٠ وقد أوردها ابن كثير فى تاريخه جزء ثانى صفحة ١٨٥ يضيفها إلى عمرو بن الحارث بن مضاض وفى روايته اختلاف كثير عن رواية صاحب الأغانى وكذلك أوردها ابن خلدون جزء ثانى صفحة ٣٢٢ .

والصرف والعروض والقافية ، على ما كانت تستقيم عليه للقرشيين أيام النبي وبعد ظهور الإسلام . وما عرف أحد أن لغة استعصت على التطور الطبيعي كما استعصت هذه اللغة دون أن تكون مقدسة أو كالمقدسة . على أن الرواة — كما قدمت لك — يروون شعراً للحميريين أحب أن تنظر فيه ، فسترى أنه كشعر الجرهميين الذين أصهر إليهم إسماعيل . وليس فى ذلك شيء من الغرابة ؛ فقد كان الحميريون والجرهميون عرباً عاربة ، وإنما الغريب هو أن يكون شعر هذه العرب العاربة أدنى إلى السخف والرداءة وأبعد عن الجودة والمتانة من شعر أولئك العرب المستعربة الذين تعلموا منهم . على أن ذلك قد لا يكون غريباً ؛ فرب تلميذ تفوّق على أستاذه ، ورب عرب مستعربة كانت أملك للعربية وأقدر عليها من العرب العاربة . وانظر إلى هذا الشعر الذى يضاف إلى حسان بن تبّع :

أيها الناس إن رأيى يرينى ... وهو الرأى طوفة فى البلاد
بالعوالى وبالقنابل تَرْدِى ... بالبطاريق مشية العواد
وبجيش عرمرم عربى ... جحفل يستجيب صوت المنادى
من تميم وخندف وإياد ... والبهاليل حمير ومراد
فإذا سرت سارت الناس خلفى ... ومعى كالجبال فى كل وادى
سقّنى ثم سقّ حمير قومى ... كأس خمر أولى النهى والعماد[1]

فما ترى فى هذا الشعر لا سيما حين تقيسه إلى ما قدمناه لك فى الكتاب الثانى من نصوص حميرية ، وتقارن بينه وبين هذه النصوص فى اللفظ والنحو والصرف ؟

وقد يكون من الإطالة وإضاعة الوقت أن نمضى فى رواية هذا الشعر ، وأن نقف عند الشعراء الذين يضاف إليهم ، وقد يكون من الحق علينا أن ننصرف عن هذا الهزل إلى شيء من جد القول . فقد يستطيع أنصار القديم أن يصعدوا حتى يصلوا إلى السماء السابعة ، وأن يهبطوا حتى يصلوا إلى الأرض السابعة ،

(١) الأغانى ، جزء ٢٠ ص ٧ .

دون أن يقنعوا غير أنفسهم بأن هذا الكلام وأمثاله قديم قد صدر عن أهل الجنوب فى العصور التى يقال إنه قيل فيها . ونحن قد قدمنا لك فى الكتاب الثالث الأسباب التى دعت إلى نحل هذا الشعر وأمثاله لتمجيد اليمانية ورفع شأنها ، وإثبات أن لها سابقة فى الجاهلية تستطيع أن تثبت بها أمام نبوة المضريين وخلافتهم .

ومن غريب الأمر أنك تحصى شعراء اليمن هؤلاء وتقرأ ما يضاف إليهم من الشعر ، فتراه كله على هذا النحو من السهولة والسخف واللين والاضطراب ، لا نستثنى منه إلا ما يضاف إلى امرئ القيس ، وستعرف رأينا فيه .

لم يكن لليمن فى الجاهلية إذن شعراء ، وما كان ينبغى أن يكون لها شعراء ؛ لأنها لم تكن تتكلم العربية ولا تلم بها إلماماً يكفى لأن تتخذها لغة الشعر . ومع ذلك فتفسير هذا الشعر وانتسابه إلى قائليه لايحتاج إلىمشقة ولا إلى عناء إن أنت أحسنت التفكير فيما قدمنا بين يديك فى الكتاب الثالث . وأنت لن تقرأ شعر شاعر من هؤلاء من اليمنيين إلا رأيته متصلا من قريب أو من بعيد بسبب من هذه الأسباب التى قدمناها فى الكتاب الثالث : متصلا بالدين ؛ متصلا بالسياسة ، متصلا بالقصص ، متصلا بالأساطير ، ولولا اتقاء الإطالة لضربنا لك الأمثال . ولكن شيئاً واحداً يجب أن نقف عنده وقفة قصيرة لأنه يقيم الدليل الذى لا يقبل الشك على ما نريد إثباته من أن هذا الشعر منحول مصنوع بعد الإسلام لسبب من هذه الأسباب التى قدمناها .

ذلك هو أن كثرة هؤلاء الشعراء من اليمنيين إنما تذكر ويروى لها الشعر بإزاء طائفة من القصص منها الغريب ومنها غير الغريب ، فيذكر بعض هؤلاء الشعراء بإزاء ما كان حول الكعبة من خصومة[1] فى قصة لا شك فى أنها متكلفة مصطنعة ، يدل على ذلك لفظها كما يدل على ذلك ما فيها من تكلف لتفسير أسماء الأماكن والجبال ، وتفسير ما كان فى مكة من عادة معروفة أو سنة متوارثة ، ويذكر بعضهم بإزاء ما يقال من أن بعض ملوك حمير قد غزا فأمعن

(١) يراجع الخلاف على ولاية البيت فى ابن خلدون جزء ثان صفحة ٣٣٢ـوما بعدها وفى ابن كثير جزء ثان صفحة ٢٠٥ وما بعدها .

فى الغزو وبسط سلطانه على أقطار الأرض ، ويذكر بعضهم أنه كان من المعمرين الذين مد الله لهم فى الحياة حتى سئموها ، فهم يتمنون الموت ويظهرون الزهد فى الناس ، وذلك شأن زهير بن جناب الكلبي وغيره ممن قدمنا الإشارة إليهم[١] ويذكر بعضهم بإزاء هذه الخصومات التى يقال إنها وقعت بين العدنانية والقحطانية فى الجاهلية فانتصرت فيها العدنانية على القحطانية انتصارات باهرة . فُتن بها بعض المحدثين من المؤرخين فبنوا عليها نظريات ضخمة ، وزعموا أن العدنانية أذعنت للقحطانية حيناً طويلا من الدهر ، ثم بدا لها فثارت بسادتها وانتصرت عليهم ، وكان قائدها إلى هذا النصر كليب الذى يذكر فى حرب البسوس ، ثم ينتقلون من التاريخ السياسى إلى التاريخ الأدبى ، فيروون أن هذا الاستقلال الذى ظفرت به عدنان قد أحدث لها نهضة عقلية وأدبية نشأ عنها الشعر العربى العدنانى .

ولسنا ننفى الخصومة بين العدنانية والقحطانية فى الجاهلية ، ولسنا ننفى خضوع العدنانية للقحطانية وثورتها بها وانتصارها عليها وظفرها بالاستقلال ، لا ننفى شيئاً من ذلك ولا نثبته ؛ لأنا لم نظفر بعد بالنصوص التاريخية القاطعة أو المرجحة لشىء من ذلك ، وإنما نقف من هذا كله موقف الشك ، أو بعبارة أدق نقف من هذا كله موقفنا بإزاء ما يروى القصاص من الأحاديث والأخبار والأساطير ، حتى نجد من الأدلة التاريخية ما يكفى لترجيح النفى أو الإثبات .

هذه الخصومات التى يقال إنها كانت بين العدنانية والقحطانية أنطقت فيما يظهر طائفة من الشعراء بشعر كثير بقيت لنا منه نماذج مفرقة فى كتب الأدب . وكنا نود لو استطاعت هذه النماذج أن تثبت للنقد الأدبى والتاريخى . فلو قد ثبت لوضعت مسألة اللغة الأدبية فى اليمن موضع البحث ، ولأكرهتنا على أن نلتمس لها حلا ، ولكن القراءة اليسيرة لهذه النماذج كفيلة بأن تقنعك بأن هذا الشعر لا يمكن أن يكون جاهليًّا . وإنما هو شعر إسلامى أنشأته

(١) راجع ابن كثير جزء ثان صفحة ١٩٢ .

العصبية المضرية اليمنية . وهنا تقف أمام طائفة من الأعاجيب فى تفنن القصاص لإرضاء العصبيات وتأييدها . فأنت حين تقرأ ما يروى من الشعر الذى قيل فى يوم الكلاب الثانى ترى عجباً : ترى طائفة من الشعراء اليمنيين يثنون على مضر ويغلون فى مدحها والإشادة بذكرها ؛ وذلك لأن النصر فى هذا اليوم كان لقبيلة مضرية هى تميم على طائفة من القبائل اليمنية منها الحميرى ، ومنها الكهلانى ، وقد انهزمت — فيما يقول القصاص — جموع اليمن هزيمة منكرة ، وأسرت طائفة من ساداتهم وأسر قائدهم عبد يغوث وقتل ورثى نفسه قبل أن يموت ، وانطلقت ألسنة الشعراء من المنهزمين بالاعتذار عن الهزيمة ، فيتخذون من هذا الاعتذار وسيلة إلى الإسراف فى الثناء على التميميين ، وما كان لهم من شجاعة وبأس وإقدام . ولكنك لا تشك وأنت تقرأ هذا الشعر فى أن الجاهليين من أهل اليمن لم يقولوه ، وإنما هو شعر صنعه قصاص تميم والمروجون للعصبية التميمية ، وقصدوا إلى إنطاق اليمنيين أنفسهم بفضل المضريين عامة وتميم خاصة . وإليك طائفة من هذا الشعر لن تحتاج إلى شرح ولا إلى تفسير ، لا فى مادتها ولا فى معناها . فانظر أولا إلى هذه القصيدة التى تضاف إلى عبد يغوث ، واقرأها ، وما أرى إلا أنك ستذكر — كما ذكرت أنا حين قرأتها — قصيدتين شائعتين : إحداهما لمالك بن الريب التميمى يرثى بها نفسه وقد لدغته حية فأحس الموت أيام معاوية [1] ، والأخرى اللامية المشهورة التى تضاف إلى امرئ القيس ، والتى سنتحدث عنها بعد حين ، والتى مطلعها « ألا انعم صباحاً » :

ألا لا تلومانى كفى اللوم ما بيا ... فما لكما فى اللوم نفع ولا ليا
ألم تعلما أن الملامة نفعها ... قليل وما لومى أخى من شماليا
فيا راكباً إما عرضت فبلغن ... ندامای من نجران أن ألا تلاقيا
أبا كرب والأيهمين كليهما ... وقيساً بأعلى حضرموت اليمانيا
جزى الله قومى بالكلاب ملامة ... صريحهم والآخرين الموماليا

(١) أولها : ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بجنب الفضا أزجى القلاص النواجيا
ويقول أبو عبيدة : إن الذى قاله ثلاثة عشر بيتاً والباقى منحول ولده الناس عليه .

ولو شئت نجتنى من الخيل نهدة ... ترى خلفها الحُوّ الجياد تواليا
ولكننى أحمى ذمار أبيكم ... وكان الرماح يختطفن المحاميا
وقد علمت عرسى مليكة أننى ... أنا الليث معدوًّا عليه وعاديا
أقول وقد شدوا لسانى بنسعة ... أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا
أمعشر تيم قد ملكتم فأسجحوا ... فإن أخاكم لم يكن من بوائيا
فإن تقتلونى تقتلوا بىَ سيداً ... وإن تطلقونى تحربونى بماليا
أحقًّا عباد الله أن لست سامعاً ... نشيد الرعاء المعزبين المتاليا
وتضحك منى شيخة عبشمية ... كأن لم تر قبلى أسيراً يمانيا
وظل نساء الحى حولىَ رُكَّدا ... يراودن منى ما تريد نسائيا
وقد كنت نحار الجزور ومعمل ال ... مطى وأمضى حيث لاحى ماضيا
وأنحر للشَّرْب الكرام مطيّتى ... وأصدع بين القينتين ردائيا
وكنت إذا ما الخيل شمّسها القنا ... لبيقاً بتصريف القناة بنانيا
وعادية سومَ الجراد وزعتها ... بكفى وقد أنحوا إلىّ العواليا
كأنى لم أركب جواداً ولم أقل ... لخيلى كرى نفّسى عن رجاليا
ولم أسبأ الزق الروى ولم أقل ... لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا[1]

وانظر إلى هذه القصيدة التى تضاف إلى البراء بن قيس الكندى وحدثنى بعد ذلك ، أتظن أن تميميًّا يستطيع أن يثنى على تميم بخير مما أثنى به هذا الكندى الموتور ؟ بل أتظن أن مضريًّا يستطيع أن ينال اليمانية بشرٍّ مما نالها به هذا اليمانى من قبيح المسبة ؟

قتلتنا تميم يوماً جديداً ... قتل عاد وذاك يوم الكلاب
يوم جئنا يسوقنا الحين سوقاً ... نحو قوم كأنهم أسد غاب
سرت فى الأزد والمذاحج طرًّا ... وبكيل وحاشد الأنياب
وبنى كندة الملوك ولخم ... وجذام وحمير الأرباب

(١) راجع هذه القصيدة فى المفضليات للضبى والأغانى جزء ١٥ صفحة ٧٥ .

ومراد وخثعم وزبيد ... وبنى الحارث الطوال الرغاب
وحشدنا الصميم نرجو نهابا ... فلقينا البوار دون النهاب
لقيتنا أسود سعد وسعدٌ ... خلقت فى الحروب سوط عذاب
تركونى مسهداً فى وثاق ... أرقب النجم ما أسيغ شرابى
خائفاً للردى ولولا دفاعى ... بمثين عن مهجتى كالهضاب
لسقيت الردى وكنت كقومى ... فى ضريح مغيباً فى التراب
تذرف الدمع بالعويل نسائى ... كنساء بكت قتيل الربابِ
فلعينى على الألى فارقونى ... درَرٌ من دموعها بانسكاب
كيف أبغى الحياة بعد رجال ... قتلوا كالأسود قتل الكلاب
منهم الحارثى عبد يغوث ... ويزيد الفتيان وابن شهاب
فى مئين نعدها ومئين ... بعد ألف مُنوا بقوم غضاب
برجال من العرانين شم ... أسدحرب ممحوضة الأنساب[1]

وهذه القصيدة التى تضاف إلى وعلة بن عبد الله الجرمى أبلغ من قصيدة البراء بن قيس الكندى فى الثناء على تميم والنعى على اليمانية . وكلتاهما تشتركان فى ضعف اللفظ وسقمه وسوء النظم . حتى إن التكلف ليلمس فيهما لمساً ، كما يلمس فى المنظومات العلمية ، ولا سيما حين تعرضان لنظم أسماء القبائل والأشخاص — قال وعلة :

عذلتنى نهد فقلت لنهد ... حين جاشت على الكلاب أخاها
يوم كنا لديهم طير ماء ... وتميم صقورها وبزاها
لا تلوموا على الفرار فسعد ... يا لنهد يخافها من يراها
إنما همها الطعان إذا ما ... كره الطعن والضراب سواها
تركوا منحجاً حديثاً مشاعاً ... مثل طسم وحمير وصداها
يا لقحطان وادعوا حى سعد ... وابتغوا سلمها وفضل نداها
إن سعد السعود أسد غياض ... باسل بأسها شديد قواها

(١) الأغانى جزء ١٥ صفحة ٧٨ .

فضحت بالكلاب حار بن كعب ... وبنـــو كندة الملوك أباها
أسلموا للمنون عبد يغوث ... وبعضّ الكبول حولا يراها
بعد ألف سقوا المنية صرفا ... فأصابت فى ذاك سعد مناها
ليت نهـــداً وجرهماً ومراداً ... والمذاحيج ذو أناة نهـــاها
عن تميم فلم تكن فقع قـــاع ... تبتدرها ربابهـــا ومناها[1]

وليس خيراً من هذا الشعر فى اللفظ والمعنى والأسلوب ولا أقرب منه إلى الصحة ما يضاف إلى الشعراء الذين يقال إنهم ذكروا يوم الكلاب الأول ، وما كان فيه من انهزام تميم عن ملكها شرحبيل بن الحارث الكندى أمام ربيعة. وأكبر الظن أن العصبية اليمانية أو العصبية الربعية هى التى أنطقت أولئك الشعراء بهذا الشعر ، لذم مضر من ناحية ومدح اليمانية والربعيين من ناحية أخرى . ولنضرب لهذا الشعر مثلا بهذا الكلام الذى يضاف إلى معديكرب بن الحارث فى رثاء أخيه شرحبيل :

إن جنبي عن الفـــراش لنابى ... كتجافى الأسر فوق الطِّراب
من حديث نمى إلىّ فـــلا تر ... قأ عينى ولا أسيغ شرابى
مرة كالذعاف أكتمها النـــا ... سَ على حـــر ملة كالشهاب
من شرحبيل إذ تعاوده الأرما ... ح فى حال لـــذة وشباب
يا ابن أمى ولو شهدتك إذ تد ... عو تميما وأنت غـــير مجاب
لتركت الحسام تجرى ظبـــاه ... من دماء الأعداء يوم الكُلاب
ثم طاعنت من ورائك حتى ... تبلغ الرحب أو تبـــز ثيابى
يوم ثارت بنـــو تميم وولت ... خيلهم يتقـــين بالأذناب
ويحكم يا بنى أسيِّد إنى ... ويحكم ربُّكم ورب الرباب
أين معطيكم الجزيل وحاميـ ... كم على الفقـــر بالمئين اللباب
فارس يضرب الكتيبة بالسيـ ... ـف على نحره كنضح المذاب
فارس يضرب الكماة جريء ... تحته قارح كلون الغـــراب[2]

(١) الأغانى جزء ١٥ صفحة ٩٧ .
(٢) الأغانى جزء ١١ صفحة ٦٥ .

وأنت تستطيع أن تلحق بهذا الشعر فى غير تردد ولا اضطراب ما يضاف إلى المضريين أنفسهم مما يتصل بيومى الكلاب وغير يومى الكلاب ، من هذه الأيام التى كانت بين اليمينية والمضرية قبل الإسلام . فكل هذا الشعر من نحل القصاص وتكلفهم ، قصدوا به إلى الفكاهة حيناً ، وإلى تزيين القصص وتكميله حيناً آخر ، وإلى نشر الدعوة والترويج للعصبية مرة ثالثة . وسترى حين تتقدم فى قراءة هذا الكتاب أنا سنقف هذا الموقف بإزاء طائفة كثيرة من الشعر الذى يتصل بالمواقع والأيام التى كانت بين القبائل الربعية والقبائل المضرية . ولكن بين اليمنيين والربعيين من ناحية والمضريين من ناحية أخرى فرقاً عظيماً ، فكثرة الشعر الذى يضاف إلى اليمنيين والربعيين كما رأيت وكما سترى متصلة بهذه الأيام والمواقع وبطائفة من النوادر والأعاجيب والأحاجى ، وقلّ أن تعرف لأولئك وهؤلاء شاعراً استقل بالشعر ولم يتخذه وسيلة إلى تسجيل طائفة من المفاخر أو طائفة من المثالب التى كانت تضاف إلى قبيلته . فى حين أن الأمر على غير ذلك بالقياس إلى المضريين ؛ فلهم شعرهم الذى لا شك فى أنه منحول متكلف لمثل ما نحل له الشعر الربعى وتكلف . لهم شعرهم الذى يتصل بالقصص والأيام والعصبيات ، ولكن لهم غير هذا الشعر شعراً آخر لا يتصل بالقصص ولا بالعصبيات ، وإنما يتصل بطائفة من الشعراء اتخذوا الشعر لهم مهنة ، ووقفوا حياتهم عليه . على أن الأمر إذا فكرت مختلف ؛ فحظ اليمن من هؤلاء الشعراء قليل ، أو قل لا يكاد يوجد ، فليس لها فى الجاهلية شاعر إلا امرؤالقيس وسترى رأينا فيه .

وليس لها فى الإسلام شاعر فحل ، وإنما شعراء اليمانية فى الإسلام مخترعون اختراعاً دون أن يكون لهم وجود تاريخى صحيح كوضّاح اليمن ، أو هم ضعاف متأخرون فى الطبقة ، وإنما نريد العصر الأموى وصدر الإسلام ، فأما فى العصر العباسى فقد أصبح الشعر شائعاً بين العرب من أهل الشمال والجنوب والموالى أنفسهم ؛ فلا ينبغى إذن أن يعتد بالطائيين ولا بالسيد الحميرى ! فهؤلاء كانوا كأبى نواس وابن الرومى والمتنبى ، الذين

لم يكونوا من العرب فى شىء ، قد قالوا الشعر عن تعلم وصناعة ، وقالوه فى غير لغتهم الطبيعية ، أو قل إنهم قالوه فى هذه اللغة التى أصبحت بحكم الدين والسياسة لغة الأدب .

ليس لليمن فى الجاهلية شعراء ، وحظها من الشعر فى الإسلام قليل ضئيل . وذلك ملائم لطبيعة الأشياء ؛ فلم تكن اللغة العربية لغة اليمن فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أخذ بعض اليمنيين يتعلم العربية ، ويتكلف الشعر فيها ؛ فكان حظهم فى هذا كحظ الموالى من الفرس الذين تعلموا العربية وتكلفوا الشعر فيها ، لأسباب سياسية وعصبية ، كما رأيت فى الكتاب الثالث . وكان شعراء اليمن فى الإسلام كشعراء الموالى قليلين ضعافاً متأخرين فى الطبقة ، متصلين بالأحزاب والعصبيات . ولعل أظهر هؤلاء الشعراء أعشى همدان ، وقد كان شاعر اليمانية وشاعر عبد الرحمن بن الأشعث خاصة[1] وقد قتله الحجاج .

أما ربيعة فحظها من الشعر والشعراء فى الجاهلية أقل من حظ المضريين ، ولكنه أكثر من حظ اليمن . فالرواة يسمون لربيعة شعراء فحولا فى الجاهلية ، ولكنهم لا يروون لهؤلاء الشعراء الفحول إلا شيئاً قليلا من الشعر ، نحن مضطرون إلى رفضه ، كما سنرى عند ما نعرض لشعر ربيعة بعد حين . فإذا جاء الإسلام فحظ ربيعة من الشعر دون حظ مضر وفوق حظ اليمن دائماً . ولربيعة فحل فى الإسلام استطاع أن يناهض فحول مضر جميعاً وهو الأخطل . ولربيعة شاعر آخر دون الأخطل ولكنه من كبار الشعراء هو القطامى . ثم لربيعة شعراء آخرون ، ولكنهم قليلون ضعاف متأخرون فى الطبقة كشعراء اليمن . وهذا أيضاً ملائم لطبيعة الأشياء؛ فقد كانت ربيعة عدنانية ، نريد أنها كانت من عرب الشمال قريبة الموطن والنسب واللغة من المضريين ، ولكنها لم تكن تتكلم لغة قريش قبل الإسلام ، فأكبر الظن أن يكون شعرها الجاهلى قد حمل على

---

(١) الأغانى جزء ٥ صفحة ١٥٣ .

شعرائها حملا . فلما كان الإسلام كان استعرابها أيسر وأسرع من استعراب اليمن ومن استعراب الموالى ، فنجم فيها الشعراء ونبغ فيها الأخطل والقطامى . فأما مضر فقد كان لها فى الجاهلية شعراء ومن قبائل مختلفة منها ، فى قيس وتميم وضبة وغيرها . وكان هؤلاء الشعراء يتخذون الشعر صناعة وفنًّا ، وكان كل شىء يدل على أن هؤلاء الشعراء يمثلون نهضة عقلية فنية فى هذا الإقليم من جزيرة العرب . فلما جاء الإسلام لم تضعف هذه النهضة بل قويت واشتد أزرها ، وكثر عدد الشعراء وكثر النابهون منهم ، واشتدت الخصومة والمنافسة بينهم طوال العصر الأموى وصدراً من العصر العباسى فكل هذا يدل على أن الشعر أصيل فى مضر ، أصيل وطبيعى ، نشأ كما سترى حين نهضت مضر ، وقوى حين قويت هذه النهضة ، وبلغ أشده وآتى ثمره الطيب حين انتهت مضر فى الإسلام إلى أقصى حظها من النهضة والقوة فى جميع فروع الحياة ، على حين لم يكن الشعر طبيعيًّا ولا أصيلا فى اليمن ولا فى ربيعة ؛ فتفاوت حظ اليمنيين والربعيين من الشعر حين تعلموا العربية القرشية بتفاوت قربهم من أهلها واستعدادهم لإتقانها وحظهم من الفن الأدبى .

ومن هنا نرى أن النظرية التى أشرنا إليها فى الكتاب الثانى ، وهى نظرية تنقل الشعر فى القبائل ، ليست نظرية صحيحة ولا طبيعية ولا ملائمة للواقع من طبيعة الأشياء . فلسنا نفهم أن ينشأ الشعر فى اليمن ثم ينتقل منها إلى ربيعة ثم إلى قيس من مضر ثم إلى تميم ؛ على نحو ما قال القدماء ، وإنما نفهم أن ينشأ هذا الشعر العربى فى مضر ، وينتقل منها إلى أقرب القبائل العربية إليها طبيعة ولغة وموطناً ؛ إلى ربيعة ثم إلى قبائل عربية أخرى أبعد من ربيعة ولكنها تعلمت هذه اللغة العربية واشتركت فى حياة العرب السياسية والدينية . ونافست مضر وربيعة منافسة قوية فحاربتهما بسلاحهما وهو الشعر ، وهذه القبائل هى القبائل اليمنية . ثم انتقل فى الوقت نفسه إلى أمم أخرى ليست من العرب فى شىء ، بل ليست من الساميين فى شىء ، ولكنها تعلمت العربية كاليمنيين وشاركت العرب فى حياتهم السياسية والدينية ، ونافستهم منافسة قوية وحاربتهم

بسلاحهم وهو الشعر ، وهذه الأمم هى الفرس وغير الفرس من هذه الشعوب التى خضعت لسلطان المسلمين .

وهنا اعتراض نظنه آخر سهم فى كنانة أنصار القديم ، ولكنك سترى أنه لن يكلفنا مشقة ولا عناء : فللأنصار شعراء وخزاعة شعراء ولقضاعة شعراء ، وهذه القبائل كلها يمنية ، وقد صح لهؤلاء الشعراء — فيما يظهر — شعر كثير . ومهما نفعل فلن نستطيع أن ننكر شعر حسان وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك . ولن نستطيع أن ننكر أن عبد الرحمن بن حسان قد أخذ الشعر عن أبيه ونبغ فيه ، وظهر بعده ابنه سعيد بن عبد الرحمن ، فكانت له سلسلة تشبه سلسلة زهير ، وكان الأحوص الأنصارى من نوابغ الشعراء . وللأنصار فى الجاهلية شعراء آخرون متفوقون ، ليسوا أقل حظًّا فى الإجادة من شعراء مضر ، ومن التحكم أن يرفض شعر هؤلاء لأنهم يمنيون ليس غير . وكل هذا حق ، ولكننا لا نرفض شعر هؤلاء ، وإنما نقف منه موقفنا من شعر مضر ؛ لأن هذا الشعر مضرى ، ولأن أصحابه مضريون . فللأنصار أن يعتقدوا أنهم يمنيون ، وللأنصار القديم أن يعدوهم يمنيين . ولكنا نحن لا نعرف مطلقاً شيئاً صحيحاً يثبت لنا هذه اليمنية . وإنما نعرف أن هؤلاء الناس كانوا يقيمون فى الحجاز ، ولا نعرف عنهم شيئاً قبل قدومهم إلى الحجاز ، بل لا نعرف متى قدموا إلى الحجاز ؛ فهم عندنا حجازيون قد استوطنوا الحجاز وتكلموا لغته ولم تكن لهم لغة أخرى . وهذا كل ما نريد عند ما نذكر المضريين ؛ فقد رأيت فى الكتاب الثانى أنا نستعمل ألفاظ مضر وربيعة وعدنان وقحطان وحمير لا نريد بها معانيها التى كان يفهمها النسابون ، وإنما هى ألفاظ شاعت ، وألفها الناس فنحن نستعملها ونريد بها المواطن الجغرافية . فنحن لا نعرف عدنان ولا قحطان ولا مضر ولا ربيعة . وإنما نعرف الحجاز ونجداً واليمن والعراق . نعرف هذه المواطن التى كانت مستقر هؤلاء العرب ، ونعرف أن هذه اللغة القرشية كانت قبيل الإسلام ظاهرة فى الحجاز ونجد . فإذا ذكرت مضر فإنما نريد هؤلاء العرب الذين كانوا يتكلمون هذه اللغة ويتخذونها مظهراً حياتهم الأدبية .

ومن الذى يستطيع أن يزعم أنه يعرف اتصال الرومانيين بأهل طروادة اتصالا تاريخيًّا صحيحاً ؟ ومع ذلك فقد كان الرومانيون يزعمون أنهم هاجروا من طروادة إلى إيطاليا . وقل مثل ذلك فى كل هذه الأحاديث التى تنتحلها الشعوب لتصل أنسابها بالشعوب القديمة ؛ فقد زعم بعض اليونان أنهم من سلالة الفينيقيين ، وزعم بعضهم الآخر أنهم من سلالة المصريين . ونحن الآن عرب من الوجهة الأدبية مهما يكن نسبنا فى حقيقة الأمر ، لنكن متصلين بالمصريين القدماء أو باليونان أو بالترك أو بمن شئت من الشعوب التى غزت مصر واستقرت فيها ، فذلك كله لا يغير حقيقة علمية واقعة ، وهى أن لغتنا هى اللغة العربية القرشية ، لا نعرف غيرها لغه طبيعية لنا منذ قرون .

ذلك شأن الأنصار ومن إليهم من هؤلاء العرب الذين استوطنوا شمال البلاد العربية ، وظهر عليهم التاريخ وهم يتكلمون لغة هذا الشمال ويتخذون عاداته ونظمه السياسية والاجتماعية والدينية . فشعر هؤلاء الأنصار مضرى كشعر قريش وتميم ، بل كشعر اليهود الذين استعمروا شمال الحجاز ، وتعلموا لغة أهله وشاركوهم فيما كانوا يقولون من شعر .

وخلاصة هذا البحث الطويل أنا نرفض فى غير تردد كل ما يضاف إلى اليمن وأهلها من شعر ، ولكنا لا نستطيع أن نرفض شعر هذا الرجل الذى اعتدّت به اليمانية واتخذته لها فخراً ، والذى اعتدت به العرب كلها فى عصر من العصور ، حتى اختلفت فى أنه أكبر شعراء العصر الجاهلى ، وهو امرؤ القيس — نقول لا نستطيع أن نرفض شعر هذا الرجل جملة دون أن نقف عنده وقفة خاصة .

٣ ـ امرؤ القيس . عبيد . علقمة

لعل أقدم الشعراء الذين يروى لهم شعر كثير يتحدث الرواة عنهم بأخبار كثيرة فيها تطويل وتفصيل هو امرؤ القيس .

نحن نعلم أن الرواة يتحدثون بأسماء طائفة من الشعراء زعموا أنهم عاشوا قبل امرئ القيس وقالوا شعراً ، ولكنهم لا يروون لهؤلاء الشعراء إلا البيت أو البيتين أو الأبيات . وهم لا يذكرون من أخبار هؤلاء الشعراء إلا الشيء القليل الذى لا يغنى . وهم يعللون قلة الأخبار والأشعار التى يمكن أن تضاف إلى هؤلاء الشعراء ببعد العهد وتقادم الزمن وقلة الحفاظ . وقد رأيت فى الكتاب الماضى أن قليلا من النقد لما يضاف إلى هؤلاء الشعراء ينتهى بك إلى جحود ما يضاف إليهم من خبر أو شعر .

فلندع هؤلاء الشعراء ولنقف عند امرئ القيس وأصحابه الذين يظهر أن الرواة عرفوا عنهم ورووا لهم الشيء الكثير .

من امرؤ القيس ؟ أما الرواة فلا يختلفون فى أنه رجل من كندة . ولكن مَنْ كندة ؟ لا يختلف الرواة فى أنها قبيلة من قحطان . وهم يختلفون بعض الاختلاف فى نسبها وتفسير اسمها وفى أخبار سادتها ، ولكنهم على كل حال يتفقون على أنها قبيلة يمانية ، وعلى أن امرأ القيس منها .

فأما اسم امرئ القيس واسم أبيه واسم أمه ، فأشياء ليس من اليسير الاتفاق عليها بين الرواة . فقد كان اسمه امرأ القيس ، وقد كان اسمه حندجاً ، وقد كان اسمه قيساً . وقد كان اسم أبيه عمراً ، وقد كان اسم أبيه حجراً أيضاً . وكان اسم أمه فاطمة بنت ربيعة أخت مهلهل وكليب ، وكان اسم أمه تملك . وكان امرؤ القيس يعرف بأبى وهب ، وكان يعرف بأبى الحارث ، ولم يكن له ولد ذكر ، وكان يئد بناته جميعاً . وكانت له ابنة يقال لها هند ، ولم تكن هند ابنته ، وإنما كانت بنت أبيه . وكان يعرف بالملك الضليل ،

وكان يعرف بذى القروح .

وعليك أنت أن تستخلص من هذا الخليط المضطرب ما تستطيع أن تسميه حقًّا أو شيئاً يشبه الحق . وأى شىء أيسر من أن تأخذ ما اتفقت عليه كثرة الرواة على أنه حق لا شك فيه ؟ وكثرة الرواة قد اتفقت على أن اسمه حندج بن حجر ، ولقبه امرؤ القيس ، وكنيته أبو وهب ، وأمه فاطمة بنت ربيعة . على هذا اتفقت كثرة الرواة . وإذا اتفقت الكثرة على شىء فيجب أن يكون صحيحاً ، أو على أقل تقدير يجب أن يكون راجحاً .

أما أنا فقد أطمئن إلى آراء الكثرة ، أو قد أرانى مكرهاً على الاطمئنان إلى آراء الكثرة فى المجالس النيابية وما يشبهها ، ولكن الكثرة فى العلم لا تغنى شيئاً ! فقد كانت كثرة العلماء تنكر كروية الأرض وحركتها ، وظهر بعد ذلك أن الكثرة كانت مخطئة ، وكانت كثرة العلماء ترى كل ما أثبت العلم الحديث أنه غير صحيح ، فالكثرة فى العلم لا تغنى شيئاً .

وإذن فليس من سبيل إلى أن نقبل قول الكثرة فى امرئ القيس ، وإنما السبيل أن نوازن بينه وبين ما تزعم القلة . وليس إلى هذه الموازنة المنتجة من سبيل إذا لاحظت ما قدمناه فى الكتاب الماضى من هذه الأسباب التى كانت تحمل على هذا النحل وتكلف القصص .

وإذن فلسنا نستطيع أن نفصل بين الفريقين المختلفين ، وإنما نحن مضطرون إلى أن نقبل ما يقول أولئك وهؤلاء، على أن الناس كانوا يتحدثون به دون أن نعرف وجه الحق فيه . ولعل هذا وأشباهه من الخلط فى حياة امرئ القيس أوضح دليل على ما نذهب إليه من أن امرأ القيس إن يكن قد وجد حقًّا — ونحن نرجح ذلك ونكاد نوقن به — فإن الناس لم يعرفوا عنه شيئاً إلا اسمه هذا ، وإلا طائفة من الأساطير والأحاديث تتصل بهذا الاسم .

وهنا يحسن أن نلاحظ أن الكثرة من هذه الأساطير والأحاديث لم تشع بين الناس إلا فى عصر متأخر ، فى عصر الرواة المدونين والقصاصين ، فأكبر الظن إذن أنها نشأت فى هذا العصر ولم تورث عن العصر الجاهلى حقًّا .

وأكبر الظن أن الذى أنشأ هذه القصة ونماها إنما هو هذا المكان الذى احتلته قبيلة كندة فى الحياة الإسلامية ، منذ تمت للنبى السيطرة على البلاد العربية إلى أواخر القرن الأول للهجرة . فنحن نعلم أن وفداً من كندة وفد على النبى وعلى رأسه الأشعث بن قيس[١] ونحن نعلم أن هذا الوفد طلب — فيما تقول السيرة — إلى النبى أن يرسل معهم مفقهاً يعلمهم الدين . ونحن نعلم أن كندة ارتدّت بعد موت النبى ، وأن عامل أبى بكر حاصرها فى النَّجير وأنزلها على حكمه ، وقتل منها خلقاً كثيراً ، وأوفد منها طائفة إلى أبى بكر فيها الأشعث بن قيس الذى تاب وأناب وأصهر إلى أبى بكر فتزوَّج أخته أم فروة[٢] وخرج — فيما يزعم الرواة — إلى سوق الإبل فى المدينة فاستلّ سيفه ومضى فى إبل السوق عقراً ونحراً حتى ظن الناس به الجنون ، ولكنه دعا أهل المدينة إلى الطعام وأدى إلى أصحاب الإبل أموالهم ، وكانت هذه المجزرة الفاحشة وليمة عرسه[٣] ، ونحن نعلم أن هذا الرجل قد اشترك فى فتح الشأم ، وشهد مواقع المسلمين فى حرب الفرس ، وحسن بلاؤه فى هذا كله[٤] وتولى عملا لعثمان ، وظاهر علياً على معاوية ، وأكره علياً على قبول التحكيم فى صفين[٥] ونحن نعلم أن ابنه محمد بن الأشعث كان سيداً من سادات الكوفة ، عليه وحده اعتمد زياد حين أعياه أخذ حجر بن عدىٍّ الكندى . ونحن نعلم أن قصة حجر بن عدى هذا وقتل معاوية إياه فى نفر من أصحابه قد تركت فى نفوس المسلمين عامة واليمنيين خاصة أثراً قوياً عميقاً مثّل هذا الرجل فى صورة الشهيد[٦] ثم نحن نعلم أن حفيد الأشعث بن قيس وهو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد ثار بالحجاج ، وخلع عبد الملك ، وعرّض ملك آل مروان للزوال ، وكان

---

(١) راجع تاريخ ابن كثير جزء ثالث صفحة ١٨٠ .
(٢) ابن خلدون جزء ثان صفحة ٦٧ إلى ٦٩ وتاريخ الطبرى جزء ٣ صفحة ٢٧٥ وما بعدها طبع مصر وتاريخ ابن الأثير جزء ٢ صفحة ١٦٠ طبع بولاق .
(٣ أسد الغابة جزء ١ صفحة ٩٨ .
(٤) تهذيب التهذيب جزء ١ صفحة ٣٥٩ .
(٥) المصدر نفسه .
(٦) الأغانى ج ١٦ صفحة ٢ وما بعدها .

سبباً فى إراقة دماء المسلمين من أهل العراق والشأم ، وكان الذين قتلوا فى حروبه يحصون فيبلغون عشرات الآلاف، ثم انهزم فلجأ إلى ملك الترك ، ثم أعاد الكرة فتنقل فى مدن فارس ، ثم استيأس فعاد إلى ملك الترك ، ثم غدر به هذا الملك فأسلمه إلى عامل الحجاج، ثم قتل نفسه فى طريقه إلى العراق ، ثم احتز رأسه وطوف به فى العراق والشأم ومصر[١] .

أفتظن أن أسرة كهذه الأسرة الكندية تنزل هذه المنزلة فى الحياة الإسلامية، وتؤثر هذه الآثار فى تاريخ المسلمين ، لا تصطنع القصص ولا تأجر القصاص لينشروا لها الدعوة ويذيعوا عنها كل ما من شأنه أن يرفع ذكرها ويبعد صوتها ؟ بلى ! ويحدثنا الرواة أنفسهم أن عبد الرحمن بن الأشعث اتخذ القصاص وأجرهم كما اتخذ الشعراء وأجزل صلتهم : وكان له قاصٌّ يقال له عمر بن ذرّ ، وكان شاعره أعشى همدان[٢] .

فما يروى من أخبار كندة فى الجاهلية متأثر من غير شك بعمل هؤلاء القصاص الذين كانوا يعملون لآل الأشعث . وقصة امرئ القيس بنوع خاص تشبه من وجوه كثيرة حياة عبد الرحمن بن الأشعث ؛ فهى تمثل لنا امرأ القيس مطالباً بثأر أبيه . وهل ثار عبد الرحمن عند الذين يفقهون التاريخ إلا منتقما لحجر بن عدى ؟ وهى تمثل لنا امرأ القيس طامعاً فى الملك ، وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث يرى أنه ليس أقل من بنى أمية استئهالا للملك ، وكان يطالب به . وهى تمثل لنا امرأ القيس متنقلا فى قبائل العرب . وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث متنقلا فى مدن فارس والعراق . وهى تمثل امرأ القيس لاجئاً إلى قيصر مستعيناً به . وقد كان عبد الرحمن بن الأشعث لاجئاً إلى ملك الترك مستعيناً به . وهى تمثل لنا أخيراً امرأ القيس وقد غدر به قيصر بعد أن كاد له أسدىٌّ فى القصر[٣] وقد غدر ملك الترك بعبد الرحمن بعد أن كاد

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير ج ٤ صفحة ١٩١ — ١٩٢ ، ٢٠٦ — ٢٠٧ والطبرى جزء ٨ صفحة ٣٩ ، ٤٠ .

(٢) الأغانى ج ٥ صفحة ١٥٣ .

(٣) راجع الكامل لابن الأثير ج ١ صفحة ١٨٥ .

له رسل الحجاج . وهى تمثل لنا بعد هذا وذاك امرأ القيس وقد مات فى طريقه عائداً من بلاد الروم . وقد مات عبد الرحمن فى طريقه عائداً من بلاد الترك .

أليس من اليسير أن نفترض بل أن نرجح أن حياة امرئ القيس كما يتحدث بها الرواة ليست إلا لوناً من التمثيل لحياة عبد الرحمن استحدثه القصّاص إرضاء لهوى الشعوب اليمنية فى العراق واستعاروا له اسم الملك الضليل اتقاء لعمال بنى أمية من ناحية ، واستغلالاً لطائفة يسيرة من الأخبار كانت تعرف عن هذا الملك الضليل من ناحية أخرى ؟

* * *

ستقول : وشعر امرئ القيس ما شأنه ؟ وما تأويله ؟ شأنه يسير وتأويله أيسر . فأقل نظر فى هذا الشعر يلزمك أن تقسمه قسمين : أحدهما يتصل بهذه القصة التى قدمنا الإشارة إليها ، وإذن فشأنه شأن هذه القصة نُحيل لتفسيرها أو تسجيلها ، ونحل لتمثيل هذا التنافس القوى الذى كان قائماً بين قبائل العرب وأحيائهم فى الكوفة والبصرة . وأقل درس لهذا الشعر يقنعك ، إن كنت من الذين يألفون البحث الحديث ، بأن هذا الشعر الذى يضاف إلى امرئ القيس ويتصل بقصته إنما هو شعر إسلامى لا جاهلى . قيل ونحل لهذه الأسباب التى أشرنا إليها ولأسباب أخرى فصلناها فى القسم الثالث من هذا الكتاب . فهذا أحد القسمين . وأما القسم الثانى فشعر لا يتصل بهذه القصة ، وإنما يتناول فنوناً من القول مستقلة عن الأهواء السياسية والحزبية ، ولنا فى هذا القسم رأى نسطره بعد حين .

وخلاصة هذا البحث القصير أن شخصية امرئ القيس — إذا فكرت — أشبه شىء بشخصية الشاعر اليونانى هوميروس . لا يشك مؤرخو الآداب اليونانية الآن فى أنها قد وجدت حقًّا ، وأثرت فى الشعر القصصى حقًّا ، وكان تأثيرها قويًّا باقياً ، ولكنهم لا يعرفون من أمرها شيئاً يمكن الاطمئنان إليه ، وإنما ينظرون إلى هذه الأحاديث التى تروى عنه ، كما ينظرون إلى القصص والأساطير لا أكثر ولا أقل . فامرؤ القيس هو الملك الضلّيل حقًّا . نريد

أنه الملك الذى لا يعرف عنـــه شىء يمكن الاطمئنان إليه . هو ضُلٌّ بن قُلٌّ ، كما يقول أصحاب المعاجم اللغوية . ومن غريب الأمر أن طائفة من الشعر تنسب إلى امرئ القيس على أنه قالها حينما كان متنقلا فى القبائل العربية يمدح بها هذه ويهجو تلك ، وتتصل بهذه الأشعار طائفة من الأخبار تبين نزول امرئ القيس فى هذه القبيلة ، والتجاءه إلى تلك القبيلة ، وجواره عند فلان ، واستعانته بفلان . وإن شيئاً مثل هذا يلاحظ فى حياة هوميروس ؛ فهو — فيما يزعم رواة اليونان — قد تنقل فى المدن اليونانية ، فلقى من بعضها الكرامة والتجلة ، ومن بعضها الإعراض والانصراف . ومؤرخو الآداب اليونانية يفسرون هذه الأحاديث على أنها مظهر من مظاهر التنافس بين المدن اليونانية كلها يزعم لنفسه أنه ضيَّف هوميروس أو نشّأه أو أجاره أو عطف عليه .

ونحن نذهب هذا المذهب نفسه فى تفسير هذه الأخبار والأشعار التى تمس تنقل امرئ القيس فى قبائل العرب ؛ فهى محدثة نحلت حين تنافست القبائل العربية فى الإسلام، وحين أرادت كل قبيلة وكل حى أن تزعم لنفسها من الشرف والفضل أعظم حظ ممكن . وقد أحس القدماء بعض هذا ؛ فصاحب الأغانى يحدثنا أن القصيدة القافية التى تضاف إلى امرئ القيس على أنه قالها يمدح بها السموءل حين لجأ إليه منحولة ، نحلها دارم بن عقال وهو من ولد السموءل[1] . وأكبر ظننا أن دارم بن عقال لم ينحل القصيدة وحدها ، وإنما نحل القصة كلها ، ونحل مايتصل بها أيضاً : نحل قصة ابن السموءل الذى قتل بمنظر من أبيه حين أبى تسليم أسلحة امرئ القيس ، ونحل قصة الأعشى الذى استجار بشريح بن السموءل وقال فيه هذا الشعر المشهور :

شريح لا تتركنّى بعد ما علقت ... حبالك اليوم بعد القد أظفارى
قد جلت ما بين بانقيا إلى عدن ... وطال فى العجم ترددى وتسيارى
فكان أكرمهم عهـــداً وأوثقهم ... مجداً أبوك بعرف غـــير إنكار
كالغيث ما استمطروه جاد وابله ... وفى الشدائد كالمستأسد الضارى

(١) الأغانى ج ٨ صفحة ٧٠ .

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به ... فى جحفل كهزيع الليل جرار
إذ سامه خطتى خسف فقال له ... قل ما تشاء فإنى سامع حار
فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر وما فيهما حظ لمختار
فشك غير طويل ثم قال له ... اقتلْ أسيرك إنى مانع جارى
أنا له خلف إن كنت قاتله ... وإن قتلت كريماً غير غوار
وسوف يعقبنيه إن ظفرت به ... رب كريم وبيض ذات أطهار
لاسِرُّهن لدينا ذاهب هدرًا ... وحافظات إذا استودعن أسرارى
فاختار أدراعه كى لا يسب بها ... ولم يكن وعده فيها بمختار[1]

ثم كانت هذه القصة المنحولة سبباً فى نحل قصة أخرى هى قصة ذهاب امرئ القيس إلى القسطنطينية ، وما يتصل بها من الأشعار. منحولة هذه القصيدة الرائية الطويلة التى مطلعها :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا ... وحلّتْ سليمى بطن ظبى فعرعرا

منحول هذا الشعر الذى قاله امرؤ القيس حين دخل الحمام مع قيصر ، والذى ننزّه هذا الكتاب عن روايته . منحول هذا الحب الذى يقال إن امرأ القيس أضمره لابنة قيصر. منحولة هذه الأشعار التى تضاف إلى امرئ القيس حين أحس السم وهو قافل من بلاد الروم .

كل هذا منحول لأنه يفسر هذه الأحاديث التى شاعت ، لتلك الأسباب التى قدمناها .

وإذا لم يكن بد من التماس الأدلة الفنية على نحل هذا الشعر ، فقد نحب أن نعرف كيف زار امرؤ القيس بلاد الروم وخالط قيصر حتى دخل معه الحمام وفتن ابنته ، ورأى مظاهر الحضارة اليونانية فى قسطنطينية ، ولم يظهر لذلك أثر ما فى شعره : لم يصف القصر ولم يذكره ، لم يصف كنيسة من كنائس قسطنطينية ، لم يصف هذه الفتاة الإمبراطورية التى فتنها ، لم يصف الروميات ، لم يصف شيئاً ما يمكن أن يكون روميًّا حقًّا . ثم يكفى أن تقرأ

(١) الأغانى ج ٨ ص ٧٩ ، وراجع أيضاً ترجمة الأعشى فى طبقات الشعراء لابن قتيبة صفحة ١٣١ .

هذا الشعر لتحس فيه الضعف والاضطراب والجهل بالطريق إلى قسطنطينية .

ومهما يكن من شيء ، فإن السذاجة وحدها هي التي تعيننا على أن نتصور شاعراً عربيًّا قديماً قال هذا الشعر الذي يضاف إلى امرئ القيس في رحلته إلى بلاد الروم وقفوله منها .

وإذا رأيت معنا أن كل هذا الشعر الذي يتصل بسيرة امرئ القيس إنما هو من عمل القصاص ، فقد يصح أن نقف معك وقفة قصيرة عند هذا القسم الثاني من شعر امرئ القيس ، وهو الذي لا يفسر سيرته ولا يتصل بها ، ولعل أحق هذا الشعر بالعناية قصيدتان اثنتان :

الأولى : * قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل *

والثانية : * ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالي *

فأما ما عدا هاتين القصيدتين ، فالضعف فيه ظاهر ، والاضطراب فيه بين ، والتكلف والإسفاف يكادان يلمسان باليد . وقد يكون لنا أن نلاحظ قبل كل شيء ملاحظة لا أدري كيف يتخلص منها أنصار القديم ، وهي أن امرأ القيس — إن صحت أحاديث الرواة — يمني ، وشعره قرشي اللغة ، لا فرق بينه وبين القرآن في لفظه وإعرابه وما يتصل بذلك من قواعد الكلام . ونحن نعلم — كما قدمنا — أن لغة اليمن مخالفة كل المخالفة للغة الحجاز ، فكيف نظم الشاعر اليمني شعره في لغة أهل الحجاز ، بل في لغة قريش خاصة ؟ سيقولون : نشأ امرؤ القيس في قبائل عدنان ، وكان أبوه ملكاً على بني أسد ، وكانت أمه من بني تغلب ، وكان مهلهل خاله ، فليس غريباً أن يصطنع لغة عدنان ويعدل عن لغة اليمن . ولكننا نجهل هذا كله ، ولا نستطيع أن نثبته إلا من طريق هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس . ونحن نشك في هذا الشعر ونصفه بأنه منحول .

وإذن فنحن ندور : نثبت لغة امرئ القيس التي نشك فيها بشعر امرئ القيس الذي نشك فيه . على أننا أمام مسألة أخرى ليست أقل من هذه المسألة تعقيداً ، فنحن لا نعلم ولا نستطيع أن نعلم الآن أكانت لغة قريش هي اللغة

السائدة فى البلاد العربية أيام امرئ القيس ؟ وأكبر الظن أنها لم تكن لغة العرب فى ذلك الوقت ، وأنها إنما أخذت تسود فى أواسط القرن السادس للمسيح ، وتمت لها السيادة بظهور الإسلام كما قدمنا .

وإذن فكيف نظم امرؤ القيس اليمنى شعره فى لغة القرآن مع أن هذه اللغة لم تكن سائدة فى العصر الذى عاش فيه امرؤ القيس ؟ وأعجب من هذا أنك لا تجد مطلقاً فى شعر امرئ القيس لفظاً أو أسلوباً أو نحواً من أنحاء القول يدل على أنه يمنى . فهما يكن امرؤ القيس قد تأثر بلغة عدنان فكيف نستطيع أن نتصور أن لغته الأولى قد محيت من نفسه محواً تامًّا ولم يظهر لها أثر ما فى شعره ؟ نظن أن أنصار القديم سيجدون كثيراً من المشقة والعناء ليحلوا هذه المشكلة . ونظن أن إضافة هذا الشعر إلى امرىء القيس مستحيلة قبل أن تحل هذه المشكلة .

على أننا نحب أن نسأل عن شىء آخر ؛ فامرؤ القيس ابن أخت مهلهل وكليب ابنى ربيعة — فيما يقولون — وأنت تعلم أن قصة طويلة عريضة قد نسجت حول مهلهل وكليب هذين ، هذه قصة البسوس وهذه الحرب التى اتصلت أربعين سنة — فيما يقول القصاص — وأفسدت ما بين القبيلتين الأختين بكر وتغلب [1] . فمن العجيب ألا يشير امرؤ القيس بحرف واحد إلى مقتل خاله كليب ، ولا إلى بلاء خاله مهلهل ، ولا إلى هذه المحن التى أصابت أخواله من بنى تغلب ، ولا إلى هذه المآثر التى كانت لأخواله على بنى بكر .

وإذن فأينما وجهت فلن تجد إلا شكًّا : شكًّا فى القصة ، شكًّا فى اللغة ، شكًّا فى النسب ، شكًّا فى الرحلة ، شكًّا فى الشعر . وهم يريدون بعد هذا أن نؤمن ونطمئن إلى كل ما يحدث به القدماء عن امرئ القيس . نعم نستطيع أن نؤمن وأن نطمئن لو أن الله قد رزقنا هذا الكسل العقلى الذى يحبب إلى الناس أن يأخذوا بالقديم تجنباً للبحث عن الجديد . ولكن الله لم يرزقنا هذا النوع من الكسل ؛ فنحن نؤثر عليه تعب الشك ومشقة البحث .

---

(١) راجع الكامل لابن الأثير جزء أول صفحة ١٨٧ وما بعدها .

وهذا البحث ينتهى بنا إلى أن أكثر هذا الشعر الذى يضاف إلى امرئ القيس ليس من امرئ القيس فى شىء ، وإنما هو محمول عليه حملا ، ومختلق عليه اختلاقاً ، حمل بعضه العرب أنفسهم ، وحمل بعضه الآخر الرواة الذين دونوا الشعر فى القرن الثانى للهجرة .

ولننظر فى المعلقة نفسها فلسنا نعرف قصيدة يظهر فيها التكلف والتعمل أكثر مما يظهران فى هذه القصيدة ؛ لا نحفل بقصة تعليق هذه القصائد السبع أو العشر على الكعبة أو فى الدفاتر ؛ فما نظن أن أنصار القديم يحفلون بهذه القصة التى نشأت فى عصر متأخر جداً ، والتى لا يشبهها شىء فى حياة العرب وعنايتهم بالآداب . ولكننا نلاحظ أن القدماء أنفسهم يشكون فى بعض هذه القصيدة . فهم يشكون فى صحة هذين البيتين :

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنها حب فلفل [1]
كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

وهم يشكون فى هذه الأبيات :

وقربة أقوام جعلت عصامها على كاهل منى ذلول مرحل
وواد كجوف العير قفر قطعته به الذئب يعوى كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى : إن شأننا قليل الغنى إن كنت لما تموّل
كلانا إذا ما نال شيئاً أفاته ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل

وهم بعد هذا يختلفون اختلافاً كثيراً فى رواية القصيدة فى ألفاظها وفى [2] ترتيبها ، ويضعون لفظاً مكان لفظ وبيتاً مكان بيت. وليس هذا الاختلاف مقصوراً على هذه القصيدة ؛ وإنما يتناول الشعر الجاهلى كله . وهو اختلاف شنيع يكفى وحده لحملنا على الشك فى قيمة هذا الشعر . وهو اختلاف قد أعطى للمستشرقين صورة سيئة كاذبة من الشعر العربى ، فخيل إليهم أنه غير منسق ولا مؤتلف ، وأن الوحدة لا وجود لها فى القصيدة ، وأن الشخصية الشعرية

(١) العقد الثمين ٢٠٤ .
(٢) العقد الثمين ٢٠٥ .

لا وجود لها فى القصيدة أيضاً ، وأنك تستطيع أن تقدم وتؤخر ، وأن تضيف إلى الشاعر شعرَ غيره دون أن تجد فى ذلك حرجاً أو جناحاً ، ما دمت لم تخل بالوزن ولا بالقافية .

وقد يكون هذا صحيحاً فى الشعر الجاهلى ، لأن كثرة هذا الشعر منحولة مصطنعة . فأما الشعر الإسلامى الذى صحت نسبته لقائليه فأنا أتحدى أى ناقد أن يعبث به أقل عبث دون أن يفسده . وأنا أزعم أن وحدة القصيدة فيه بينة ، وأن شخصية الشاعر فيه ليست أقل ظهوراً منها فى أى شعر أجنبى . إنما جاء هذا الخطأ من اتخاذ هذا الشعر الجاهلى نموذجاً للشعر العربى ، مع أن هذا الشعر الجاهلى — كما قدمنا — لا يمثل شيئاً ولا يصلح إلا نموذجاً لعبث القصاص وتكلف الرواة .

ونظن أن أنصار القديم لا يخالفون فى أن هذين البيتين قلقان فى القصيدة وهما :

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل

فقد وضع هذان البيتان للدخول على البيت الذى يليهما وهو :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

وهذان البيتان أشبه بتكلف المشطر والمخمس منهما بأى شىء آخر .

فإذا فرغنا من هذا الشعر الذى لا نكاد نختلف فى أنه دخيل فى القصيدة ، فقد نستطيع أن نرد القصيدة إلى أجزائها الأولى . وهذه الأجزاء هى أولا وقوف الشاعر على الدار ، وما يتصل بذلك من بكاء وإعوال ، ثم ذكره أيام لهوه مع العذارى ، ثم عتابه لصاحبته وما يتصل بذلك من وصف خليلته ، ثم ذكر الليل والاستطراد منه إلى الصيد ، وما يتوسل به إلى الصيد من وصف الفرس ، ثم ذكر البرق وما يتبعه من السيل .

ولنسرع القول بأن وصف اللهو مع العذارى وما فيه من فحش أشبه بأن يكون من نحل الفرزدق منه بأن يكون جاهليًّا . فالرواة يحدثوننا أن الفرزدق

خرج فى يوم مطير إلى ضاحية البصرة ، فاتبع آثاراً حتى انتهى إلى غدير وإذا فيه نساء يستحممن ، فقال ما أشبه هذا اليوم بيوم دارة جلجل ، وولى منصرفاً . فصاح النساء به : يا صاحب البغلة ، فعاد إليهن . فسألنه وعزمن عليه ليحدثهن بحديث دارة جلجل ، فقص عليهن قصة امرئ القيس ، وأنشدهن قوله :

ألا ربّ يوم لك منهن صالح ولا سيما يوم بدارة جلجل

(الأبيات)[1]

والذين يقرءون شعر الفرزدق ويلاحظون فحشه وغلظته ، وأنه قد لم على هذا الفحش وعلى هذه الغلظة ، لا يجدون مشقة فى أن يضيفوا إليه هذه الأبيات ، فهى بشعره أشبه ، وكثيراً ما كان القدماء يتحدثون بمثل هذه الأحاديث يضيفونها إلى القدماء وهم ينحلونها من عند أنفسهم . ومهما يكن من شىء ، فلغة هذه الأبيات كلغة القصيدة كلها عدنانية قرشية يمكن أن تصدر عن شاعر إسلامى اتخذ لغة القرآن لغة أدبية .

أما وصف امرئ القيس لخليلته ، وزيارته لها ، وتجشمه ما تجشم للوصول إليها ، وتخوفها الفضيحة حين رأته ، وخروجها معه وتعفيتها آثارهما بذيل مرطها ، وما كان بينهما من لهو ، فهو أشبه بشعر عمر بن أبى ربيعة منه بأى شىء آخر . فهذا النحو من القصص الغرامى فى الشعر فن عمر بن أبى ربيعة قد احتكره احتكاراً ولم ينازعه فيه أحد . ولقد يكون غريباً حقّاً أن يسبق امرؤ القيس إلى هذا الفن ويتخذ فيه هذا الأسلوب ويعرف عنه هذا النحو ، ثم يأتى ابن أبى ربيعة فيقلده فيه ، ولا يشير أحد من النقاد إلى أن ابن أبى ربيعة قد تأثر بامرئ القيس ، مع أنهم قد أشاروا إلى تأثير امرئ القيس فى طائفة من الشعراء فى أنحاء من الوصف . فكيف يمكن أن يكون امرؤ القيس هو منشئ هذا الفن من الغزل الذى عاش عليه ابن أبى ربيعة ، والذى كوّن شخصية ابن أبى ربيعة الشعرية ولا يعرف له ذلك ؟

---

(١) الأغانى ج ١٩ صفحة ٢٦ وما بعدها .

وأنت إذا قرأت قصيدة أو قصيدتين من شعر ابن أبي ربيعة لم تكد تشك فى أن هذا الفن فنه ابتكره ابتكاراً ، واستغله استغلالا قويًّا ، وعرفت العرب له هذا . وقل مثل هذا فى هذا القصص الغرامى الذى تجده فى قصيدة امرئ القيس الأخرى : * ألا انعم صباحاً أيها الطلل البالى *

فنى هذا القصص الفاحش فن ابن أبي ربيعة وروح الفرزدق . ونحن نرجح إذن أن هذا النوع من الغزل إنما أضيف إلى امرئ القيس : أضافه رواة متأثرون بهذين الشاعرين الإسلاميين .

بقى الوصف ، ولا سيما وصف الفرس والصيد ، ولكننا نقف فيه موقف التردد أيضاً . واللغة هى التى تضطرنا إلى هذا الموقف . فالظاهر أن امرأ القيس كان قد نبغ فى وصف الخيل والصيد والسيل والمطر . والظاهر أنه قد استحدث فى ذلك أشياء كثيرة لم تكن مألوفة من قبل . ولكن أقال هذه الأشياء فى هذا الشعر الذى بين أيدينا أم قالها فى شعر آخر ضاع وذهب به الزمان ولم يبق منه إلا الذكر ، وإلا جمل مقتضبة أخذها الرواة فنظموها فى شعر محدث نسقوه ولفقوه وأضافوه إلى شاعرنا القديم ؟ هذا مذهبنا الذى نرجحه . فنحن نقبل أن امرأ القيس هو أول من قيد الأوابد ، وشبه الخيل بالعصىّ والعقبان وما إلى ذلك ، ولكننا نشك أعظم الشك فى أن يكون قد قال هذه الأبيات التى يرويها الرواة . وأكبر الظن أن هذا الوصف الذى نجده فى المعلقة وفى اللامية الأخرى فيه شىء من ريح امرئ القيس ، ولكن من ريحه ليس غير .

هناك قصيدة ثالثة نجزم بأنها منحولة نحلا وهى القصيدة البائية التى يقال إن امرأ القيس أنشأها يخاصم بها علقمة بن عبدة الفحل ، وإن أم جندب زوج امرئ القيس قد غلّبت علقمة على زوجها . وأنت تجد القصيدتين فى ديوان امرئ القيس وديوان علقمة . فأما قصيدة امرئ القيس فمطلعها :

خليلىّ مرّا بى على أم جندب لنقضى لبانات الفؤاد المعذب

وأما قصيدة علقمة فمطلعها :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ولم يك حقًّا كل هذا التجنب

ويكفى أن تقرأ هذين البيتين لتحس فيهما رقة إسلامية ظاهرة . على أن هذين الشاعرين قد توارد على معان كثيرة ، بل على ألفاظ كثيرة ، بل على أبيات كثيرة تجدها بنصها فى القصيدتين معاً ، وعلى أن البيت الذى يضاف إلى علقمة وبه ربح القضية يروى لامرئ القيس ، وهو :

فأدركهن ثانياً من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

والبيت الذى خسر به امرؤ القيس القضية يروى لعلقمة وهو :

فللسوط ألهوب وللساق درّةٌ وللزجر منه وقعُ أهوجَ منعب[1]

وأنت تستطيع أن تقرأ القصيدتين دون أن تجد فيهما فرقاً بين شخصية الشاعرين ، بل أنت لا تجد فيهما شخصية ما ، وإنما تحس أنك تقرأ كلاماً غريباً منظوماً جمع ما يمكن جمعه من وصف الفرس جملة وتفصيلا . وأكبر الظن أن علقمة لم يفاخر امرأ القيس ، وأن أم جندب لم تحكم بينهما ، وأن القصيدتين ليستا من الجاهلية فى شىء ، وإنما هما صنع عالم من علماء اللغة لسبب من تلك الأسباب التى أشرنا فى الكتاب الماضى إلى أنها كانت تحمل علماء اللغة على النحل . وكان أبو عبيدة والأصمعى يتنافسان فى العلم بالخيل ، ووصف العرب إياها : أيهما أقدر عليه وأحذق به . وما نظن إلا أن هاتين القصيدتين وأمثالهما أثر من آثار هذا النحو من التنافس بين العلماء من أهل الأمصار الإسلامية المختلفة .

وهنا وقفة أخرى لا بد منها ، ذلك أن امرأ القيس لا يذكر وحده . وإنما يذكر معه من الشعراء علقمة — كما رأيت — وعبيد بن الأبرص . فأما علقمة فلا يكاد الرواة يذكرون عنه شيئاً إلا مفاخرته لامرئ القيس ومدحه ملكاً من ملوك غسان ببائيته التى مطلعها :

طحا بك قلب فى الحسان طروب بُعيد الشباب عصر حانَ مشيب

---

(١) انظر تحكيم أم جندب فى الأغانى ج ٧ ص ١٢٨ .

وإلا أنه كان يتردد على قريش ويناشدها شعره ، وإلا أنه مات بعد ظهور الإسلام أى فى عصر متأخر جداً بالقياس إلى امرئ القيس الذى مهما يتأخر فقد مات قبل مولد النبي ، والذى نرى نحن أنه عاش قبل القرن السادس وربما عاش قبل القرن الخامس أيضاً .

وأما عبيد فقد التمسنا فى سيرته وما يضاف إليه من الشعر ما يعيننا على إثبات شخصية امرئ القيس وشعره ، فكانت النتيجة محزنة جداً: ذلك أنها انتهت بنا إلى أن نقف من عبيد وشعره نفس الموقف الذى وقفناه من امرئ القيس وشعره. وليس علينا فى ذلك ذنب؛ فالرواة لا يحدثوننا عن عبيد بشىء يقبل التصديق : إنما عبيد عند الرواة والقصاص شخص من أصحاب الخوارق والكرامات ، كان صديقاً للجن والسماء معاً ، عمر عمراً طويلا يصلون به إلى ثلاثة قرون ، ومات ميتة منكرة : قتله النعمان ابن المنذر أو المنذر بن ماء السماء فى يوم بؤسه . والرواة يعرفون شيطان عبيد واسم هذا الشيطان هبيد . وقد حاول بعضهم أن يرسل هذا المثل : « لولا هبيد ماكان عبيد » . وقد رووا لهبيد هذا شعراً ، وزعموا أنه أراد أن يلهم الشعر ناساً غير عبيد فلم يوفق . ولعبيد مع الجن أحاديث لا تخلو من لذة وعجب(١) ، ولكن كل ما نقرأ من أخبار عبيد لا يعطينا من شخصيته شيئاً ولا يبعث الاطمئنان إلا فى أنفس العامة أو أشباه العامة .

فأما شعر عبيد فليس أشد من شخصيته وضوحاً . فالرواة يحدثوننا بأنه مضطرب ضائع ، وابن سلام يحدثنا فى موضع من كتابه « طبقات الشعراء » أنه لم يبق من عبيد وطرفة إلا قصائد بقدر عشر(٢) ولكنه يحدثنا فى موضع آخر أنه لا يعرف له إلا قوله :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقطَبيَّات فالذنوبُ

---

(١) راجع مقدمة جمهرة أشعار العرب القرشى .

(٢) صفحة ١ .

ثم يقول ابن سلام : ولا أدرى ما بعد ذلك[١] . ولكن رواة آخرين يروون هذه القصيدة كاملة ، ويروون له شعراً آخر فى هجاء امرئ القيس ومعارضته ، وفى استعطاف حجر على بنى أسد[٢] . ويكفى أن تقرأ هذه القصيدة التى قدمنا مطلعها لتجزم بأنها منحولة لا أصل لها ، وحسبك أنه يثبت فيها وحدانية الله وعلمه على نحو ما يثبتهما القرآن ، فيقول :

والله ليس له شريك علاّم ما أخفت القلوب

فأما شعره الآخر الذى عارض فيه امرأ القيس وهجا فيه كندة فلا حظّ له من صحة فيما نعتقد . وذلك أن فيه إسفافاً وضعفاً وسهولة فى اللفظ والأسلوب لا يمكن أن تضاف إلى شاعر قديم . ويكفى أن تقرأ هذه القصيدة التى أولها :

يا ذا المخوفنا بقتـ ـل أبيه إدلالاً وحينا
أزعمت أنك قد قتلـ ـت سراتنا كذبا ومينا[٣]

لتعرف أنها من عمل القصاص ، وأن هذا الشعر وأشباهه إنما هو من أثر التنافس بين العصبية اليمنية والمضرية .

ولولا أننا نؤثر الإيجاز ونحرص عليه لروينا لك هذا الشعر ووضعنا يدك على مواضع التوليد فيه ، ولكن الرجوع إلى هذا الشعر يسير ، والحكم عليه أيسر . وإذن فكل شعر امرئ القيس الذى يتصل بشعر عبيد هذا منحول أيضاً كشعر عبيد .

وقد رأيت من هذه الإلمامة الصغيرة بهؤلاء الشعراء الثلاثة : امرئ القيس وعبيد وعلقمة ، أن الصحيح من شعرهم لا يكاد يذكر ، وأن الكثرة المطلقة من

---

(١) صفحة ٣١ .

(٢) الأغانى ج ١٩ صفحة ٥٧ .

(٣) الأغانى ج ٧ ص ٨٥ ومختارات ابن الشجرى صفحة ٩٠ .

هذا الشعر مصنوعة لا تثبت شيئاً ولا تنفى شيئاً بالقياس إلى العصر الجاهلى ، لا نستثنى من ذلك إلا قصيدتين اثنتين لعلقمة :

الأولى : * طحا بك قلب فى الحسان طروب *

والثانية : * هل ما علمت وما استودعت مكتوم *

فقد يمكن أن يكون لهاتين القصيدتين نصيب من الصحة مع شىء من التحفظ فى بعض أبيات القصيدة الثانية . ولكن صحة هاتين القصيدتين لا تمس رأينا فى الشعر الجاهلى ، فقد رأيت أن علقمة متأخر العصر جداً ، وأنه مات بعد ظهور الإسلام ، ورأيت أيضاً أنه كان يأتى قريشاً ويعرض عليها شعره ، على أننا احتفظنا لأنفسنا بالشك فى بعض أبيات من القصيدة الثانية يظهر فيها التوليد ، وهى هذه الأبيات التى يذهب فيها الشاعر مذهب الحكمة وضرب المثل .

٤ – عمرو بن قميئة . مهلهل . جليلة

وشاعران آخران يتصل ذكرهما بذكر امرئ القيس . كان أحدهما – فيما يقول الرواة – صديقاً له ، صحبه فى رحلته إلى قسطنطينية ، ولم يعد من هذه الرحلة كما لم يعد امرؤ القيس ، وهو عمر بن قميئة . وكان الآخر خال امرئ القيس – فيما يقول الرواة – وهو مهلهل بن ربيعة[1] .

ولا بد من وقفة قصيرة عند هذين الشاعرين ، فسترى بعد قليل من التفكير أن حياتهما ليست أوضح ولا أثبت من حياة امرئ القيس وعبيد ، وأن شعرهما ليس أصح ولا أصدق من شعر امرئ القيس وعبيد .

ولنلاحظ قبل كل شىء أن بين امرئ القيس وعمرو بن قميئة شبهاً غريباً ؛ فقد كان امرؤ القيس يسمى الملك الضليل . وفسرنا نحن هذا الاسم تفسيراً غير الذى اتفق عليه الرواة وأصحاب اللغة ، فقلنا إنه الملك المجهول الذى

(١) الأغانى جزء ١٦ صفحة ١٥٨ .

لا يعرف عنه شيء ، قلنا إنه ضُلُّبن قُلّ . وكانت العرب تسمى عمرو بن قميئة عمراً الضائع ، فأما المتأخرون من الرواة بعد الإسلام فقد التمسوا لهذه التسمية تفسيراً فوجدوه فى سهولة ويسر ، أليس قد رحل مع امرئ القيس إلى القسطنطينية ؟ أليس قد مات فى هذه الرحلة ؟ فهو إذن عمرو الضائع ؛ لأنه ضاع فى غير قصد ولا وجه . أما نحن فنفسر هذا الاسم كما فسرنا اسم امرئ القيس ، ونرى أن عمرو بن قميئة ضاع كما ضاع امرؤ القيس من الذاكرة ، ولم يعرف من أمره شيء إلا اسمه هذا ، كما لم يعرف من امرئ القيس ولا من أمر عبيد إلا اسماهما ، ووضعت له قصة كما وضعت لكل من صاحبيه قصة ، وحمل عليه شعر كما حمل على صاحبيه الشعر أيضاً .

قال الرواة : إن ابن قميئة عمر طويلا ، وعرف امرأ القيس وقد انتهت به السن إلى الهرم ، ولكن امرأ القيس أحبه واستصحبه فى رحلته رغم سنه[1] ، قال ابن سلام : « إن بنى أقيش تدعى بعض شعر امرئ القيس لعمرو بن قميئة ، وليس ذلك بشيء »[2] ، وفى الحق أن هذا ليس بشيء ؛ فإن هذا الشعر لا يمكن أن يكون لعمرو بن قميئة كما لا يمكن أن يكون لامرئ القيس ؛ فهو شعر محدث محمول .

وإذا كان عمرو بن قميئة لا يعرف امرأ القيس ، إلا بعد أن تقدمت به السن وأدركه الهرم ، فيجب أن يكون قد قال الشعر قبل امرئ القيس الذى لم تتقدم به السن . والرواة يزعمون أن ابن قميئة قال الشعر فى شبابه الأول ، وإذن فليس امرؤ القيس هو أول من فتح للناس باب الشعر . ولكن مالنا نقف عند شيء كهذا والرواة يضطربون فيه اضطراباً شديداً ؟ فهم يزعمون أن أول من قصد القصائد مهلهل بن ربيعة خال امرئ القيس . وكأن امرأ القيس إنما جاءه الشعر من قبل أمه ، ومعنى ذلك أن الشعر عدنانى لا قحطانى . ومن هنا نشأت نظرية أخرى تزعم أن الشعر يمان كله ، بدئ بامرئ القيس فى

---

(١) الأغانى ج ١٦ صفحة ١٥٨ .

(٢) ابن سلام صفحة ٣٧ .

الجاهلية وختم بأبى نواس فى الإسلام . فأنت ترى أنا حين نقف عند مسألة كهذه لا نتجاوز العصبية بين عدنان وقحطان . ولكن سترى أكثر من هذا بعد قليل .

قصة عمرو بن قميئة التى يرويها الرواة ليست شيئاً قيماً، وإنما هى حديث كغيره من الأحاديث . فهم يزعمون أن أباه توفى عنه طفلا فكفله عمه ، ونشأ عمرو جميلا وضيء الطلعة ، فكلفت به امرأة عمه وكتمت ذلك ، حتى إذا غاب زوجها لأمر من أموره أرسلت إلى الفتى ، فلما جاء دعته إلى نفسها ، فامتنع وفاء لعمه وامتناعاً عن منكر الأمر وانصرف . ولكنها حنقت عليه وألقت على أثره جفنة ، حتى إذا عاد زوجها أظهرت الغضب والغيظ وقصت على زوجها الأمر وكشفت عن الأثر ، فغضب الرجل على ابن أخيه[1] . وهنا يختلف الرواة ، فمنهم من يزعم أنه هم بقتله ، فهرب إلى الحيرة ، ومنهم من يزعم أنه أعرض عنه . ومهما يكن من شيء فقد اعتذر الشاب إلى عمه فى شعر نروى لك منه طرفاً لتلمس بيدك ما جاء فيه من سهولة ولين وتوليد :

خليلىّ لا تستعجلا أن تزوّدا ... وأن تجمعا شملى وتنتظرا غدا
فما لبثى يوماً بسائق مغنم ... ولا سرعتى يوماً بسائقة الردى
وإن تنظرا فى اليوم أقض لبانة ... وتستوجبا منّاً علىّ وتحمدا
لعمرك ما نفس بجد رشيدة ... تؤامرنى سوءاً لأصرم مرثدا
وإن ظهرت منى قوارص جمة ... وأفرغ من لؤمى مراراً وأصعدا
على غير جرم أن أكون جنيته ... سوى قول باغ كادنى متجهدا
لعمرى لنعم المرء تدعو بخلة ... إذا ما المنادى فى المقامة نددا
عظيم رماد القدر لا متعبس ... ولا موئس منها إذا هو أوقدا
وإن صرحت كحلٌ وهبت عرية ... من الريح لم تترك من المال مرقدا

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٩٤ .

صبرت على وطء الموالى وخطبهم ... إذا ضن ذو القربى عليهم وأخمدا
ولم يحم حُرْمَ الحى إلا محافظ ... كريم المحيا ما جد غير أجردا[١]

ونظن أن النظر فى هذه القصة وفى هذه القصيدة يكفى ليقتنع القارئ بأننا أمام شىء منحول متكلف لاحظ له من صدق . وليس خيراً من هذه القصيدة هذا الشعر الذى يقال إن عمرو بن قميئة أنشأه لما تقدمت به السن يصف به هرمه وضعفه[٢] . ولعله قاله قبل أن يرتحل مع امرئ القيس إلى بلادم الروم ، ويزعم الشعبى أو من روى عن الشعبى أن عبد الملك بن مروان تمثل به فى علته التى مات فيها ، وهو :

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة ... خلعت بها عنى عنان لجامى
على الراحتين مرة وعلى العصا ... أنوء ثلاثاً بعدهن قيامى
رمتنى بنات الدهر من حيث لا أرى ... فما بال من يرمى وليس برام ؟
فلو أن ما أرمى بنبل رميتها ... ولكنما أرمى بغير سهام
إذا ما رآنى الناس قالوا ألم يكن ... حديثاً جديد البرى غير كهام
وأفنى وما أفنى من الدهر ليلة ... وما يُفن ما أفنيت سلك نظامى
وأهلكنى تأميل يوم وليلة ... وتأميل عام بعد ذاك وعام[٣]

فنحن نستطيع بعد هذا أن نضيف عمرو بن قميئة إلى صاحبيه الضائعين : عبيد وامرئ القيس ، وأن ننتقل إلى مهلهل ، لنرى ماذا يمكن أن يثبت لنا من أمره وشعره .

فأما أمره فنظن أنه يسير لا سبيل إلى الاختلاف فيه . فيجب أن نبلغ من السذاجة حظًّا غير قليل لنسلم بما كان يتحدث به الرواة من أمر هذه القصة الطويلة العريضة : قصة البسوس . ونظن أن الاتفاق يسير على أن هذه القصة قد طولت ونميت وعظم أمرها فى الإسلام حين اشتد التنافس بين ربيعة

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٥٨ .
(٢) الأغانى ج ١٦ ص ١٦٥ .
(٣) المصدر نفسه .

ومضر من ناحية ، وبين بكر وتغلب من ناحية أخرى . وليس مهلهل فى حقيقة الأمر إلا بطل هذه القصة ؛ فقد عظم أمره وارتفع شأنه بمقدار ما نميت هذه القصة وطول فيها . ولسنا ننكر أن خصومة عنيفة كانت بين القبيلتين الشقيقتين بكر وتغلب فى العصور الجاهلية القديمة ، وأن هذه الخصومة قد انتهت إلى حروب سفكت فيها الدماء وكثرت فيها القتلى ، ولكن أسباب هذه الخصومة ومظاهرها وأعراضها وآثارها الأدبية قد ذهبت كلها ولم يبق منها إلا ذكرى ضئيلة تناولها القصاص فاستغلوها استغلالا قويًّا ، ووجدت بكر وتغلب وربيعة كلها حاجتها فى هذا الاستغلال . ولم لا ؟ ألم تكن النبوة والخلافة ومظاهر الشرف كلها لمضر فى الإسلام ؟ وكيف يستطيع العرب من ربيعة أن يؤمنوا لمضر بهذه السيادة وهذا المجد دون أن يثبتوا لأنفسهم فى قديم العهد — على أقل تقدير — مجداً وشرفاً وسيادة ؟ وقد فعلوا : فزعموا أنهم كانوا سادة العرب من عدنان فى الجاهلية : كان منهم الملوك والسادة ، وكان منهم الذين ذادوا القحطانية عن ولد عدنان ، وكان منهم الذين قاوموا طغيان اللخميين فى العراق والغسانيين فى الشأم ، وكان منهم الذين هزموا جيوش كسرى فى يوم ذى قار . لمضر إذن حديث العرب بعد الإسلام ، ولربيعة قديم العرب قبل الإسلام . فاذا لاحظت إلى هذا ما كان من الخصومة الفعلية بين ربيعة ومضر أيام بنى أمية وما كان من الخصومة الأدبية بين جرير شاعر مضر الذى يقول :

إن الذى حرم المكارم تغلباً جعل النبوة والخلافة فينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

وبين الأخطل الذى يقول :

أبنى كليب إن عمىّ اللذا قتلا الملوك وفككا الأغلالا

نقول إذا لاحظت كل هذه الخصومات لم يصعب عليك أن تتصور كثرة النحل فى القصص والشعر حول ربيعة عامة ، وحول هاتين القبيلتين من ربيعة خاصة ، وهما بكر وتغلب . على أن بعض الرواة كانوا يظهرون كثيراً من الشك فيما كانت تتحدث به بكر وتغلب من أمر هذه الحروب .

ومهما يكن من شيء فليست شخصية مهلهل بأوضح من شخصية امرئ القيس أو عبيد أو عمرو بن قميئة؛ وإنما تركت لنا قصة البسوس منه صوراً هي إلى الأساطير أقرب منها إلى أي شيء آخر . ومن هنا قال ابن سلام إن العرب كانت ترى أن مهلهلا كان يكثر ويدعي في قوله بأكثر من فعله[١] والحق أن مهلهلا لم يتكثر ولم يدع شيئاً ، وإنما تكثرت تغلب في الإسلام ونحلته ما لم يقل ، ولم تكتف بهذا النحل ، بل زعمت أنه أول من قصد القصيد وأطال الشعر ، ثم أحست ما نحس الآن أو أحسه الرواة أنفسهم ، وهو أن في هذا الشعر اضطراباً واختلاطاً ، فزعمت أو زعم الرواة ، أنه لهذا الاضطراب والاختلاط سمي مهلهلا ؛ لأنه هلهل الشعر ، والهلهلة الاضطراب . ويستشهد ابن سلام على هذا بقول النابغة :

* أتاك بقول هلهل النسج كاذب[٢] *

وليس من شك في أن شعر مهلهل مضطرب ، فيه هلهلة واختلاط .

ولكننا نستطيع أن نجد هذه الهلهلة نفسها في شعر امرئ القيس وعبيد وابن قميئة وكثير غيرهم من شعراء العصر الجاهلي ؛ فقد كانوا جميعاً مهلهلا إذن .

غير أننا لا نستطيع أن نطمئن إلى أن يهلهل شعراء الجاهلية جميعاً الشعر ، بحيث يصبح لكل منهم شخصيات شعرية مختلفة تتفاوت في القوة والضعف ، وفي الشدة واللين ، وفي الإغراب والسهولة . وإذن فمن الذي هلهل الشعر ؟ هلهله الذين وضعوه من القصاص والناحلين وأصحاب التنافس والخصومة بعد الإسلام .

ويحسن أن نظهرك على شيء من شعر مهلهل لترى كما نرى أنه لا يمكن أن يكون أقدم شعر قالته العرب :

---

(١) صفحة ١٢ .

(٢) المصدر نفسه .

أليلتنا بذى حسم أنيرى ... إذا أنت انقضيت فلا تحورى
فإن يك بالذنائب طال ليلى ... فقد أبكى مع الليل القصير
فلو نبش المقابر عن كليب ... فيعلم بالذنائب أى زير
بيوم الشعثمين لقر عيناً ، ... وكيف لقاء من تحت القبور
وأنى قد تركت بواردات ... بجيراً فى دم مثل العبير
هتكت به بيوت بنى عُباد ... وبعض الغشم أشفى للصدور
على أن ليس يوفى من كليب ... إذا برزت مخبأة الخدور
وهمام بن مرة قد تركنا ... عليه القشعمان من النسور
ينوء بصدره والرمح فيه ... ويخلجه خدبٌ كالبعير
فلولا الريح أسمع من بحجر ... صليل البيض تقرع بالذكور
فدى لبنى شقيقة يوم جاءوا ... كأسد الغاب لجت فى الزئير
كأن رماحهم أشطان بئر ... بعيد بين جاليها جرور
غداة كأننا وبنى أبينا ... بجنب عنيزة رحيا مدير
تظل الخيل عاكفة عليهم ... كأن الخيل ترخص فى غدير[1]

أليس يقع من نفسك موقع الدهش أن يستقيم وزن هذا الشعر وتطرد قافيته ، وأن يلائم قواعد النحو وأساليب النظم التى لا يشذ فى شىء ولا يظهر عليه شىء من أعراض القدم أو مما يدل على أن صاحبه هو أول من قصد القصيد وطوّل الشعر؟ أليس يقع فى نفسك هذا كله موقع الدهش حين تلاحظ معه سهولة اللفظ ولينه ، وإسفاف الشاعر فيه إلى حيث لا تشك أنه رجل من الذين لا يقدرون إلا على مبتذل اللفظ وسوقيه ؟

ولكننا لا نريد أن نترك مهلهلا هذا دون أن نضيف إليه امرأة أخيه جليلة التى رثت كليباً — فيما يقول الرواة — بشعر لا ندرى أيستطيع شاعر أو شاعرة فى هذا العصر الحديث أن يأتى بأشد منه سهولة ولياناً وابتذالا ، مع أننا نقرأ

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٤٧ .

للخنساء وليلى الأخيلية شعراً فيه من قوة المتن وشدة الأسر ما يعطينا صورة صادقة للمرأة البدوية العربية . قالت جليلة :

يا بنة الأقوام إن شئت فلا ... تعجلى باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينت الذى ... يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تكن أخت امرئ لمت على ... شفق منها عليه فافعلى
جل عندى فعل جساس فيا ... حسرتى عما انجلت أو تنجلى
فعل جساس على وجدى به ... قاصم ظهرى ومدن أجلى
لو بعين فقئت عينى سوى ... أختها فانفقأت لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما ... تحمل الأم أذى ما تفتلى
يا قتيلا قوض الدهر به ... سقف بيتى جميعاً من على
هدم البيت الذى استحدثته ... وانثنى فى هدم بيتى الأول
ورمانى قتله من كثب ... رمية المصمى به المستأصل
يا نسائى دونكن اليوم قد ... خصنى الدهر برزء معضل
خصنى قتل كليب بلظى ... من ورائى ولظى مستقبلى
ليس من يبكى ليومين كمن ... إنما يبكى ليوم ينجلى[1]

وقد أعرضنا فى كل هذه الأحاديث عن أسجاع ما نظن أن أحداً يرتاب فى أنها مصنوعة متكلفة، ونعتقد أن قراءة هذا الشعر الذى رويناه تكفى لنضيف فى غير مشقة مهلهلا وامرأة أخيه إلى ابن أخته امرئ القيس .

وقد فرغنا من امرئ القيس ومن يتصل به من الشعراء ، ولكننا لم نفرغ من الشعراء أنفسهم ، فلا بد من وقفات أخرى قصيرة عند طائفة منهم . وستثبت لك هذه الوقفات أننا لسنا غلاة ولا مسرفين إن خشينا ألا يقتصر الشك على امرئ القيس وشعره .

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٥٠ .

٥ ـ عمرو بن كلثوم . الحارث بن حلزة

ونحن حين ندع مهلهلا وامرأة أخيه إلى هذين الشاعرين من أصحاب المعلقات لا نتجاوز ربيعة ، بل لا نتجاوز هذين الحيين من ربيعة ، وهما حيا بكر وتغلب . فعمرو بن كلثوم تغلبي ، وهو فى عرف الرواة لسان تغلب الناطق ، هو الذى سجل مفاخرها وأشاد بذكرها فى شعره ، أو بعبارة أدق : فى قصيدته التى تروى بين المعلقات . وقد كان — فيما يقول الرواة — بطلا من أبطال تغلب ، ورث القوة والأيد وشدة البأس وإباء الضيم عن جده مهلهل ؛ فقد كانت أمه ليلى بنت مهلهل .

وقد أحيط عمرو بن كلثوم فى مولده ونشأته ، بل فى مولد أمه ، بطائفة من الأساطير لا يشك أشد الناس سذاجة فى أنها لون من ألوان العبث والنحل :

زعموا أن مهلهلا لما ولدت له ليلى أمر بوأدها فأخفتها أمها ، ثم نام فأتاه آت وتنبأ له بأن ابنته هذه ستلد ابناً يكون له شأن ، فلما أصبح سأل عن ابنته فقيل وئدت ، فكذّب وألح ، فأظهرت له ، فأمر بإحسان غذائها . ثم تزوجت كلثوماً ، فما زالت ترى فيما يرى النائم من يأتيها فيخبرها عن ابنها بالأعاجيب حتى ولدته ونشأته . قالوا وقد ساد عمرو بن كلثوم قومه ولما يتجاوز الخامسة عشرة[١] .

فكل هذه الأحاديث التى نشير إليها إشارة ، تدل على أن عمرو بن كلثوم قد أحيط بطائفة من الأساطير جعلته إلى أبطال القصص أقرب منه إلى أشخاص التاريخ . ومع ذلك فقد يظهر أنه وجد حقًّا ، وقد يظهر أنه على خلاف من قدمنا ذكرهم من الشعراء ، وقد أعقب ؛ فصاحب الأغانى يحدثنا بأن كان له عقب كان باقياً إلى أيامه[٢] .

---

(١) الأغانى ج ٩ ص ١٥٧ .

(٢) الأغانى ج ٩ ص ١٧٦ .

وسواء أكان عمرو بن كلثوم شخصاً من أشخاص التاريخ أم بطلا من أبطال القصص ، فإن القصيدة التى تنسب إليه لا يمكن أن تكون جاهلية أولا يمكن أن تكون كثرتها جاهلية . وهل نستطيع قبل كل شىء أن نطمئن إلى ما يتحدث به الرواة من أن عمرو بن كلثوم قتل ملكاً من ملوك الحيرة هو عمرو ابن هند المشهور ، ذلك حين بغى عمرو بن هند هذا وانتهى به الطغيان إلى أن طمع فى أن تستخدم أمه ليلى بنت مهلهل أم عمرو هذا ، قال الرواة : فطلبت هند أم الملك إلى ليلى بنت المهلهل أن تناولها طبقاً ؛ فأجابتها ليلى : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ، وصاحت ليلى : واذلاه ! يا لتغلب ! وكان ابنها عمرو فى قبة الملك فسمع دعاءها فوثب إلى سيف معلق فضرب به الملك ، ونهضت بنو تغلب فنهبوا قبة الملك وعادوا إلى باديتهم[1] .

غير أن النص التاريخى الذى يثبت هذه القصة لم يصل إلينا بعد . وهل من المعقول أن يقتل ملك الحيرة هذه القتلة ويقف الأمر عند هذا الحد بين آل المنذر وبنى تغلب من ناحية ، وبين ملوك الفرس وأهل البادية من ناحية أخرى ؟ أليس هذا لوناً من الأحاديث التى كان يتحدث بها القصاص يستمدونها من حاجة العرب إلى المفاخرة والتنافس ؟ بلى ! وقصيدة عمرو بن كلثوم نفسها نوع من هذا الشعر الذى كان ينحل مع هذه الأحاديث وأنت إذا قرأت هذه القصيدة رأيت أن مهلهلا لم يكن يتكثر وحده ، وإنما أورث التكثر والكذب سبطه عمرو بن كلثوم ، فلسنا نعرف كلمة تضاف إلى الجاهليين وفيها من الإسراف والغلو ما فى كلمة عمرو بن كلثوم هذه . على أن رأى الرواة فيها يشبه رأيهم فى معلقة امرئ القيس فهم يشكون فى بعضها ، وهم يختلفون فى الأبيات الأولى منها : أقالها عمرو بن كلثوم ، أم قالها عمرو بن عدى ابن أخت جذيمة الأبرش . فأما الذين يضيفون هذه الأبيات لعمرو بن كلثوم فيرون أن مطلع القصيدة :

* ألا هبى بصحنك فاصبحينا *

---

(١) الأغانى جـ ٩ ص ١٧٦ .

وأما الآخرون فيرون أن مطلعها :

* قفى قبل التفرق يا ظعينا *

وأولئك وهؤلاء لا يختلفون فى إنطاق عمرو بن عدى بالبيتين :

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا

وأنت حين تمضى فى القصيدة ترى فيها أبياتاً مكررة تقع وسط القصيدة وفى آخرها . ولكن هذا النحو من الاضطراب مشترك فى أكثر الشعر الجاهلى ، مصدره اختلاف الروايات . فإذا قرأت القصيدة نفسها فستجد فيها لفظاً سهلا لا يخلو من جزالة ، وستجد فيها معانى حساناً ، وفخراً لا بأس به لولا أن الشاعر يسرف فيه من حين إلى حين إسرافاً ينتهى به إلى السخف ؛ كقوله :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً تخر له الجبابر ساجدينا

وستجد فيها أبياتاً تمثل إباء البدوى للضيم واعتزازه بقوته وبأسه ؛ كقوله :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

قلت إن هذا البيت يمثل إباء البدوى للضيم . ولكنى أسرع فأقول إنه لا يمثل سلامة الطبع البدوى وإعراضه عن تكرار الحروف إلى هذا الحد الممل :

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فقد كثرت هذه الجيمات والهاءات واللامات ، واشتد هذا الجهل حتى مل . وهم يحملون على الأعشى بيتاً فيه مثل هذا النوع من التعسف . لكنا نشك فى صحة هذا البيت الذى يضاف إلى الأعشى .

ومهما يكن من شىء ، فإن فى قصيدة ابن كلثوم هذه من رقة اللفظ وسهولته ما يجعل فهمها يسيراً على أقل الناس حظًّا من العلم باللغة العربية

فى هذا العصر الذى نحن فيه . وما هكذا كانت تتحدث العرب فى منتصف القرن السادس للمسيح وقبل ظهور الإسلام بما يقرب من نصف قرن . وما هكذا كانت تتحدث ربيعة خاصة فى هذا العصر الذى لم تسد فيه لغة مضر ولم تصبح فيه لغة الشعر . بل ما هكذا كان يتحدث الأخطل التغلبى الذى عاش فى العصر الأموى أى بعد ابن كلثوم بنحو قرن . واقرأ هذه الأبيات وحدثنى أتطمئن إلى جاهليتها :

قفى قبل التفرق يا ظعينا ... نخبرك اليقين وتخبرينا
قفى نسألك هل أحدثت صرماً ... لوشك البين أم خنت الأمينا
بيوم كريهة ضرباً وطعناً ... أقر به مواليك العيونا
وإن غداً وإن اليوم رهن ... وبعد غد بما لا تعلمينـــا
تريك إذا دخلت على خلاء ... وقد أمنت عيون الكاشحينا
ذراعى عيطل أدماء بكر ... هجان اللون لم تقرأ جنينا
وثدياً مثل حق العاج رخصاً ... حصاناً من أكف اللامسينا
ومتنى لدنة سمقت وطالت ... روادفها تنوء بما ولينا
ومأكمة يضيق الباب عنها ... وكشحاً قد جننت به جنونا
وساريتى بلنط أو رخام ... يرن خشاش حليهما رنينا

واقرأ هذه الأبيات أيضاً :

ألا لا يعلم الأقوام أنا ... تضعضعنا وأنا قد ونينا
ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة عمرو بن هند ... نكون لقيلكم فيها قطينا ؟
بأى مشيئة عمرو بن هند ... تطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تهددنا وتوعدنا رويداً ... متى كنا لأمك مقتوينا ؟
فإن قناتنا يا عمرو أعيت ... على الأعداء قبلك أن تلينا

وهذه الأبيات :

ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينا
وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايـا وأبنا بالملوك مصفدينا
إليكم يا بنى بكر إليكم ألما تعرفوا منا اليقينا

وهذه الأبيات وازن بينها وبين الأبيات الأخيرة :

وقد علم القبائل من معد إذا قبب بأبطحها بنينا
بأنا المطعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون إذا سخطنا وأنا الآخذون إذا رضينا
وأنا العاصمون إذا أطعنا وأنا العارمون إذا عصينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

وهذه الأبيات :

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الذل فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً تخر له الجبابر ساجدينا

أمتن من هذه القصيدة وأرصن قصيدة الحارث بن حلزة ، وكان لسان بكر — فيما يقول الرواة — ومحاميها والذائد عنها بين يدى عمرو بن هند أيضاً . زعموا أن عمر بن هند أصلح بين القبيلتين المختصمتين بكر وتغلب واتخذ منهما رهائن ، فتعرضت رهائن تغلب لبعض الشر وهلكت أو هلك أكثرها ، فتجنت تغلب على بكر وطالبت بدية الهلكى ، وأبت بكر ، وكادت

تستأنف الحرب بينهما ، واجتمعت أشرافها إلى عمرو بن هند ليحكم بينهم . وأحس الحارث ميل الملك إلى تغلب ، فنهض فاعتمد على قوسه وارتجل هذه القصيدة . قالوا وكان به وضح ، وكان الملك قد أمر أن يكون بينه وبينه ستار ، فلما أخذ ينشد قصيدته أخذ الملك يعجب به ويدنيه شيئاً فشيئاً حتى أجلسه إلى جانبه وقضى لبكر [١] .

ويكفى أن تقرأ هذه القصيدة لترى أنها ليست مرتجلة ارتجالا ، وإنما هى نظمت وفكر فيها الشاعر تفكيراً طويلا ، ورتب أجزاءها ترتيباً دقيقاً . وليس فيها من مظاهر الارتجال إلا شيء واحد ، وهو هذا الإقواء الذى تجده فى قوله :

فملكنا بذلك الناس حتى ملك المنذر بن ماء السماء

فالقافية كلها مرفوعة إلا هذا البيت . ولكن الإقواء كان شيئاً شائعاً حتى عند الشعراء الإسلاميين ، الذين لم يكونوا يرتجلون فى كل وقت . نقول إن قصيدة الحارث أمتن وأرصن من قصيدة ابن كلثوم ، وقد نظمتا فى عصر واحد — إن صح ما يقول الرواة — فهما مسوقتان إلى عمرو بن هند . فاقرأ هذه الأبيات للحارث ووازن بينها فى اللفظ والمعنى وبين ما قدمنا لك من شعر عمرو :

ملك أضرع البرية لا يو جد فيها لما لديه كفاء
ما أصابوا من تغلبى فمطلو ل ، عليه إذا أصيب العفاء
كتكاليف قومنا إذا غزا المن ذر هل نحن لابن هند رعاء !
إذا أحل العلياء قبة ميسو ن فأدنى ديارها العوصاء
فتأوّت له قراضبة من كل حى كأنهم ألقاء
فهداهم بالأسودين وأمر الله بلغ يشقى به الأشقياء
إذ تمنونهم غروراً فساقت هم إليكم أمنية أشراء
لم يغروكم غروراً ولكن يرفع الآل شخصهم والضحاء

(١) الأغانى ج ٩ ص ١٧١ .

وانظر إلى هذه الأبيات يعير فيها الشاعر تغلب بإغارات كانت عليهم ، لم ينتصفوا لأنفسهم من أصحابها :

أعينا جناح كندة أن يغ ... نم غازيهم ومنا الجزاء
ليس منا المضرّبون ولا قي ... س ولا جندل ولا الحدّاء
أم جنايا بنى عتيق فمن يغ ... در فإنا من حربهم برءاء
أم علينا جرّى العباد كما نيـ ... ـط بجوز المحمّل الأعباء ؟
وثمانون من تميم بأيدي ... هم رماح صدورهن القضاء
تركوهم ملحّبين وآبوا ... بنهاب يصم منها الحداء
أم علينا جرّى حنيفة أم ما ... جمعت من محارب غبراء
أم علينا جرّى قضاعة أم لي ... س علينا فيما جنوا أنداء
ثم جاءوا يسترجعون فلم تر ... جع لهم شامة ولا زهـــراء

فأنت ترى أن بين القصيدتين فرقاً عظيماً فى جودة اللفظ وقوة المتن وشدة الأسر . على أن هذا لا يغير رأينا فى القصيدتين ؛ فنحن نرجح أنهما منحولتان . وكل ما فى الأمر أن الذين كانوا ينحلون كانوا كالشعراء أنفسهم يختلفون قوة وضعفاً وشدة ولياناً . فالذى نحل قصيدة الحارث بن حلزة كان من هؤلاء الرواة الأقوياء الذين يحسنون تخير اللفظ وتنسيقه ، ونظم القصيد فى متانة وأيد . ولسنا نتردد فى أن نعيد ما قلناه من أن هاتين القصيدتين وما يشبههما مما يتصل بالخصومة بين بكر وتغلب إنما هو من آثار التنافس بين القبيلتين فى الإسلام لا فى الجاهلية .

٦ ــ طرفة بن العبد . المتلمس

وشاعران آخران من ربيعة نقف عندهما وقفة قصيرة ، هما طرفة بن العبد والمتلمس . وإنما نجمعهما لأن القصص جمعهما من قبل . فقد زعموا أن المتلمس كان خال طرفة[١] . ولم يقف جمع القصص بينهما عند هذا الحد ، بل قد جمعهما فى الشىء القليل الذى نعرفه عنهما . ذلك أن لطرفة والمتلمس أسطورة لهج بها الناس منذ القرن الأول للهجرة . وهم يختلفون فى روايتها اختلافاً كثيراً ، ولكنا نتخير من هذه الروايات أيسرها وأقربها إلى طبيعة الإنسان .

زعموا أن هذين الشاعرين هجوا عمرو بن هند حتى أحنقاه عليهما ، ثم وفدا عليه ، فتلقاهما لقاء حسناً وكتب لهما كتابين إلى عامله بالبحرين ، وأوهمهما أنه كتب لهما بالجوائز والصلات ، فخرجا يقصدان إلى هذا العامل . ولكن المتلمس شك فى كتابه فأقرأه غلاماً من أهل الحيرة ، فإذا فيه أمر بقتل المتلمس فألقى كتابه فى النهر ، وألح على طرفة فى أن يفعل فعله فأبى ، وافترق الشاعران : مضى أحدهما إلى الشأم فنجا ، ومضى الآخر إلى البحرين فلقى الموت[٢] . وكان طرفة حديث السن لم يتجاوز العشرين فى رأى بعض الرواة ولم يتجاوز السادسة والعشرين فى رأى بعضهم الآخر . وقد كثرت الأحاديث حول هذه القصة ، وأفضت إلى أشياء أعرضنا عن ذكرها لظهور النحل فيها . وغضب عمرو بن هند على المتلمس حين هرب إلى الشام وأفلت من الموت . فأقسم لا يطعم حب العراق . واتصل هجاء المتلمس له[٣] .

والرواة المحققون يعدون هذين الشاعرين من المقلين . بل لم يرو ابن سلام للمتلمس شيئاً ولم يسم له قصيدة ، فأما طرفة فقد قال ابن سلام عنه فى موضع : إنه هو وعبيد من أقدم الفحول ، ولم يبق لهما إلا قصائد

---

(١) طبقات ابن سلام ص ٣٦ والأغانى ج ٢١ ص ١٢١ .
(٢) الأغانى ج ٢١ ص ١٢٥ وما بعدها . (٣) الأغانى ج ٢١ ص ١٢٨ .

بقدر عشر . واستقل ابن سلام هذه القصائد على الشاعرين ، وقال إنه قد حمل عليهما حمل كثير . وقد رأيت أنه حين أراد أن يضع عبيداً فى طبقته لم يعرف له إلا بيتاً واحداً . فأما طرفة فقد عرف له المطولة وروى مطلعها هكذا :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد   وقفت بها أبكى وأبكى إلى الغد

وعرف له الرائية المشهورة :

أصحوت اليوم أم شاقتك هر   ومن الحب جنون مستقر

وعرف له قصائد أخرى لم يدل عليها . وقال إنه أشعر الناس بواحدة[1] ، يريد المعلقة . وبين أيدينا ديوان لطرفة يشتمل على هاتين القصيدتين وقصيدة أخرى مشهورة ، وهى :

سائلوا عنا الذى يعرفنا   بخزازى يوم تحلاق اللمم

ثم مقطوعات أخرى ليست بذات غناء . وأنت إذا قرأت شعر طرفة رأيت فيه ما ترى فى أكثر هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين ، ولا سيما المضريين منهم، من متانة اللفظ وغرابته أحياناً ، حتى لتقرأ الأبيات المتصلة فلا تفهم منها شيئاً دون أن تستعين بالمعاجم . ولكنك مضطر إلى أن تلاحظ أن هذا الشعر أشبه بشعر المضريين منه بشعر الربعيين ؛ فنحن لم نجمع شعراء ربيعة عفواً ، وإنما جمعناهم فيما تحدثنا به إليك فى هذا الكتاب إلى الآن لأن بينهم شيئاً يتفقون فيه جميعاً ، هو هذه السهولة التى تبلغ الإسفاف أحياناً ، لا نستثنى منهم فى ذلك إلا قصيدة الحارث بن حلزة فكيف شذ طرفة عن شعراء ربيعة جميعاً فقوى متنه واشتد أسره ، وآثر من الإغراب ما لم يؤثر أصحابه ، ودنا شعره من شعر المضريين ؟

وانظر هذه الأبيات التى يصف بها الناقة :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره   بعوجاء مرقال تروح وتغتدى

أمون كألواح الإران نصأتها   على لاحب كأنه ظهر برجد

---

(١) ابن سلام ص ٣٠ .

جمالية وجناء تردى كأنها سفنجة تبرى لأزعر أربد
تبارى عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مور معبد
تربعت القفين فى الشول ترتعى حدائق مولىّ الأسرّة أغيد
تريع إلى صوت المهيب وتتقى بذى خصل روعات أكلف ملبد
كان جناحى مضرحىّ تكنفا حفافيه شُكّاً فى العسيد بمسرد

وهو يمضى على هذا النحو فى وصف ناقته ، فيضطرنا إلى أن نفكر فيما قلناه — من قبل — من أن أكثر هذه الأوصاف أقرب إلى أن يكون من صنعة العلماء باللغة منه إلى أى شىء آخر . ولكن دع وصفه للناقة واقرأ :

ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد
متى تأتنى أصبحك كأساً روية وإن كنت عنها ذا غنى فاغن وازدد
وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى إلى ذروة البيت الشريف المصمد
فداماى بيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين برد ومجسد
رحيبٌ قطابُ الجيب منها رقيقة بجس الندامى بضة المتجرد
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروقة لم تشدد
إذا رجّعت فى صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على رُبَع ردى

فسترى فى هذه الأبيات ليناً ولكن فى غير ضعف ، وشدة ولكن فى غير عنف . وسترى كلاماً لا هو بالغريب الذى لا يفهم ، ولا هو بالسوقى المبتذل ، ولا هو بالألفاظ قد رصفت رصفاً دون أن تدل على شىء . وامض فى قراءة القصيدة فستظهر لك شخصية قوية ومذهب فى الحياة واضح جلى : مذهب اللهو واللذة يعمد إليهما من لا يؤمن بشىء بعد الموت ، ولا يطمع من الحياة إلا فيما تتيح له من نعيم برىء من الإثم والعار على ما كان يفهمهما عليه هؤلاء الناس :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد
رأيت بنى غبراء لا ينكرونى ولا أهل هذاك الطراف الممدد

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى فدعنى أبادرها بما ملكت يدى
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبقى العاذلات بشربة كميت متى ما تعل بالماء تزبد
وكرّى إذا نادى المضاف محنباً كسيد الغضا نبهته المتورد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجبٌ ببهكنة تحت الطراف المعمد

فى هذا الشعر شخصية بارزة قوية ، لا يستطيع من يلمحها أن يزعم أنها متكلفة أو منحولة أو مستعارة . وهذه الشخصية ظاهرة البداوة واضحة الإلحاد ، بينة الحزن واليأس والميل إلى الإباحة فى قصد واعتدال . هذه الشخصية تمثل رجلا فكر والتمس الخير والهدى فلم يصل إلى شىء ، وهو صادق فى يأسه ، صادق فى حزنه ، صادق فى ميله إلى هذه اللذات التى يؤثرها. ولست أدرى أهذا الشعر قد قاله طرفة أم قاله رجل آخر . وليس يعنينى أن طرفة قائل هذا الشعر ، بل ليس يعنينى أن أعرف اسم صاحب هذا الشعر ؛ وإنما الذى يعنينى هو أن هذا الشعر صحيح لا تكلف فيه ولا نحل ، وأن هذا الشعر لا يشبه ما قدمنا فى وصف الناقة ولا يمكن أن يتصل به ، وأن هذا الشعر إنما هو من الشعر النادر الذى نعثر به من حين إلى حين فى تضاعيف هذا الكلام الكثير الذى يضاف إلى الجاهليين ، فنحس حين نقرؤه أنا نقرأ شعراً حقّاً فيه قوة وحياة وروح .

وإذن فأن أرجح أن فى هذه القصيدة شعراً صنعه علماء اللغة ، هو هذا الوصف الذى قدمنا بعضه ، وشعراً صدر عن شاعر حقّاً هو هذه الأبيات وما يشبهُها ، ولسنا نأمن أن يكون فى هذه الأبيات نفسها ما دس على الشاعر دسّاً ونُحِله نحلا .

فأما صاحب القصيدة فيقول الرواة إنه طرفة . ولست أدرى أهو طرفة أم غيره . بل لست أدرى أجاهلى هو أم إسلامى . وكل ما أعرفه هو أنه شاعر بدوى ملحد شاك .

ولست أحب أن أقف عند القصيدتين الأخريين ؛ فإن شخصية الشاعر تستخفى فيهما استخفاء وتعود معهما إلى هذا الشعر الذى وقفت عنده غير مرة ، والذى يمثل مجد القبيلة وفخرها القديم . وأكبر الظن أن هاتين القصيدتين كقصيدة الحارث بن حلزة وضعتا فى الإسلام تخليداً لمآثر بكر بن وائل .

فلندع طرفة ولنصل إلى **المتلمس** . وأمر **المتلمس** أيسر من أمر طرفة . فشعره يعود بنا إلى شعر ربيعة الذى قدمنا الإشارة إليه ، وإلى ما فيه من رقة وإسفاف وابتذال . ومن غريب أمره أن التكلف فيه ظاهر ولا سيما فى القافية . فيكفى أن تقرأ سينيته التى أولها :

يا آل بكر ألا لله أمكم طال الثواء وثوب العجز ملبوس

لتحس تكلف القافية . على أن هذه القصيدة مضطربة الرواية ؛ فقد يوضع آخرها فى أولها ، وقد يروى مطلعها :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع العيس

و**للمتلمس** قصيدة أخرى ليست أجود ولا أمتن من هذه ، ولعلها أدنى منها إلى الرداءة ، وهى التى مطلعها :

ألم تر أن المرء رهن منية صريع لعافى الطير أو سوف يرمس
فلا تقبلن ضيماً مخافة ميتة وموتن بها حرًّا وجلدك أملس

ويقول فيها :

وما الناس إلا ما رأوا وتحدثوا وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا

وربما كانت ميمية المتلمس أجود ما يضاف إليه من الشعر ، وهى التى أولها :

يعيرنى أمى رجال ولا أرى أخا كرم إلا بأن يتكرما

وأكبر الظن أن كل ما يضاف إلى المتلمس من شعره أو أكثره — على أقل تقدير — مصنوع ، الغرض من صنعته تفسير طائفة من الأمثال وطائفة من الأخبار حفظت فى نفوس الشعب عن ملوك الحيرة وسيرتهم : فى هؤلاء الأخلاط من العرب وغير العرب الذين كانوا يسكنون السواد . ولا أستبعد أن يكون شخص المتلمس نفسه قد اخترع اختراعاً ، تفسيراً لهذا المثل الذى كان يضرب بصحيفة المتلمس ، والذى لم يكن الناس يعرفون من أمره شيئاً ، ففسره القصاص واستمدوا تفسيره من هذه الأساطير الشعبية التى أشرنا إليها غير مرة .

٧ — الأعشى

على أن لربيعة فى جاهليتها شاعراً لا يخلو أمره من الغرابة فيما يظهر ، وهو الأعشى ميمون بن قيس ، الذى يعرف أحياناً بأعشى قيس ، وأحياناً أخرى بأعشى بكر ، ويذكر غالباً لقبه الأعشى ليس غير . وهو يكنى أبا بصير . وهو متأخر فيما يقول الرواة ، أدرك الإسلام وكاد يسلم . ومن الناس من يؤرخ وفاته بسنة سبع للهجرة كأنما يستنبط ذلك من هذه القصة التى تحدثنا أنه وفد على النبى فاعترضته قريش وصدته عن سبيل الله ، مغرية إياه بمائة ناقة حمراء ، منفرة له عن الإسلام بما فيه من حظر للخمر والزنا والقمار . وفى هذه القصة أن أبا سفيان قال له : إن بيننا وبين محمد هدنة . ففهم الذين أرخوا موت الأعشى أن أبا سفيان إنما يذكر هدنة الحديبية . ومهما يكن من شىء فالأعشى متأخر ، وكل الأخبار التى تتصل به والأسماء التى تذكر معه تدل على أنه كان متأخراً ؛ فهم يذكرون أنه مدح طائفة من الناس كلهم كان فى آخر العصر الجاهلى . ولهذا كله قيمته ، فقد كان الأعشى إذن يعيش فى العصر الذى ظهرت فيه لغة قريش ، وأخذت تمتد وتتجاوز الحجاز ونجد بعض الشىء . والرواة يحدثوننا أن الأعشى كان يعيش فى اليمامة ؛ فليس هو إذن من ربيعة العراق ،

وإنما هو أقرب إلى داخلية البلاد العربية الشمالية . ولكن الرواة بعد هذا لا يعرفون من أمر الأعشى إلا طائفة من الأحاديث لا سبيل إلى الثقة بها أو الاطمئنان إليها . بعض هذه الأحاديث فيه رائحة الأساطير ، وبعضها ظاهر فيه الكذب والنحل ، وبعضها يستنبط من أبيات من الشعر شائعة على هذا النحو الذى يستنبط به القدماء أخبارهم من شعر لا يعرف من أين جاء . فهم يحدثوننا مثلا بأن قيس بن جندل أبا الأعشى كان يعرف بقتيل الجوع ؛ لأنه أوى إلى غار فسقطت على فمه صخرة سدته ، ومات الرجل فيه جوعاً : يستنبطون ذلك من بيت يضيفونه إلى خصم للأعشى كان يهاجيه واسمه جهنام ، وهذا البيت هو :

أبوك قتيل الجوع قيس بن جندل وخالك عبد من جماعة راضع

والرواة يمثلون لنا الأعشى صاحب لهو ولذة وشراب ، يظهر لك ذلك فيما يضاف إليه من الشعر ، كما يظهر فى طائفة من الأخبار ؛ فقد روى عن بعض ولاة اليمامة أنه سأل عن دار الأعشى فدل عليها ، وسأل عن قبره فأخبر بأنه فى فناء الدار ، فقصد إلى هذه الدار ورأى القبر فإذا هو رطب ، فسأل عن ذلك فأخبر بأن الفتيان يجتمعون حول هذاالقبر فيشربون ويعدون الأعشى واحداً منهم . فإذا جاءت نوبته صبوا على القبر حظه من الخمر ، فذلك علة رطوبته . وإذا صح هذا الخبر فقد كان فتيان اليمامة فى القرن الأول للهجرة مسرفين فى اللهو مغرقين فى شرب الخمر ، لا يستترون ولا يصطنعون فى ذلك شيئاً من الحيطة . وإذا كان حظ الأعشى وحده كافياً ليحتفظ لقبره بهذه الرطوبة فما بال حظوظ هؤلاء الفتيان مجتمعين ! والظاهر أن هذا الخبر لا قيمة له ، إنما هو من هذه الأخبار التى تتصل بما فى الأساطير من منادمة الموتى وصب الخمر على قبورهم .

والرواة يحدثوننا أيضاً بأن فتيان اليمامة كانوا يتصلون بالأعشى ، ولا سيما حين يعود من أسفاره فيطعمون عنده ويشربون . وما نرى هذا كله إلا نوعاً من التفسير لما يضاف إلى الأعشى من الشعر الذى يصف فيه الخمر ، ولما يروى من أنه أحجم عن الإسلام وآثر التريث سنة ليستنفد صبابة

من الخمر كانت بقيت له .

على أن الرواة لا يعرفون — كما قلنا — من حياة الأعشى شيئاً يمثل لنا بعض التمثيل نشأته أو حياته كهلا وشيخاً . وهم بعد هذا يجمعون على أنه كان من الشعراء المقدمين ، يعدونه من هؤلاء الأربعة الذين يؤلفون الطبقة الأولى ، وهم امرؤ القيس والأعشى والنابغة وزهير . ثم يجمعون هؤلاء الأربعة فى سجع يضيفه بعضهم إلى يونس بن حبيب ، وبعضهم إلى غير يونس بن حبيب ، وهو أن امرأ القيس أشعر الناس إذا ركب ، والأعشى أشعرهم إذا طرب ، والنابغة أشعرهم إذا رهب ، وزهير أشعرهم إذا رغب . يستنبطون هذا من كثرة ما يضاف إلى امرئ القيس من وصف الخيل والصيد ، وإلى النابغة من الاعتذار ، وإلى الأعشى من وصف الخمر ، وإلى زهير من المدح . ولكن امرأ القيس لم يكن صاحب خيل وصيد ليس غير ، وإنما كان إلى ذلك صاحب لهو ودعارة وفجور . ولم يكن النابغة صاحب اعتذار فحسب ، وسترى أن الاعتذار فى شعر النابغة ليس شيئاً ، وإنما كان النابغة صاحب وصف ومدح وهجاء ، إن صح ما يضيف إليه الرواة . والأعشى يصف الخمر ، ولكن حظه من المدح أعظم من حظه من وصف الخمر . وهو أكثر مدحاً من زهير ، ومدحه — إن صح ما يضاف إليه من الشعر — منوع كثير الفنون . وكان زهير يمدح ، ولكنه كان يصف ويشبب ويحسن الهجاء . فليس لهذا السجع إذن قيمة إلا فى قوافيه .

والرواة يفتنون فى تقديم بعض هؤلاء الشعراء على بعض . ولكن ابن سلام يروى لنا من ذلك جملة قصيرة لها قيمتها : يحدثنا بأن أهل البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس ، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيراً والنابغة [1] ، فأما تقديم أهل الحجاز والبادية زهيراً والنابغة فطبيعى ؛ فقد كان زهير والنابغة شاعرين بدويين متصلين بأهل الحجاز والبادية اتصال موطن ونسب وسياسة ولغة قبل كل

(١) طبقات ابن سلام صفحة ١٦ .

شيء ، كما سترى ذلك حين نعرض لشعر مضر . وأما أهل العراق فى البصرة والكوفة فقد كانت كثرتهم يمنية ربعية ، ومن المعقول أن يؤثروا شعر هذين الشاعرين ؛ وأحدهما — فيما يقول الرواة — يمنى خالص هو امرؤ القيس ، والآخر ربعى فى نسبه ، ولكن شعره فى اليمنية كثير وهو الأعشى . وربما لا يقف تقديم العراقيين لهذين الشاعرين عند هذا الحد ؛ فأحد هذين الشاعرين عراق النشأة والمولد والشعر والحياة — إن صح ماقدمناه من الفرض — وهو امرؤ القيس ، فقد لفقت قصته تلفيقاً فى العراق بعد قصة عبد الرحمن بن الأشعث ، واخترع شعره اختراعاً فى العراق أيضاً . وسترى بعد قليل أن كثيراً من شعر الأعشى اخترع ونظم فى الكوفة وغيرها من البيئات العراقية يمنية كانت أو ربعية .

ويحدثنا الرواة بأن الأعشى أول من تكسب بالشعر ، ويروون فى ذلك أحاديث . ولكنهم يحدثوننا فى الوقت نفسه بأن النابغة كان عظيماً رفيع المكانة فى قومه ، ولكنه تكسب بشعره فغض ذلك منه وحط من قدره . فقد كان التكسب بالشعر إذن يغض من الشعراء ويحط من أقدارهم فى الجاهلية ، ولكن التكسب بالشعر لم يغض من زهير ولم يحط من قدره ؛ لا يحدثنا الرواة بشيء من ذلك . وكان التكسب بالشعر لا يغض من الأعشى ولا يحط من قدره ، بل كان يرفعه ويعظم شأنه ويجعله مخوفاً مهيباً ، ويغرى العرب بتملقه واصطناعه . وحسبك أن أبا سفيان فزع وجزع حين أحس أن الأعشى وافد على المدينة فمادح النبى ، فاحتال فى صده عن ذلك ، وجمع إليه أشراف قريش وأنذرهم إن لم يجمعوا للأعشى مائة ناقة حمراء أن يضرم عليهم نيران العرب بمدحه النبى ؛ فأشفقت قريش وجمعت مائة ناقة حمراء . وما كانت قريش تحب جمع النوق الحمر ، ولا تميل إلى هذا النوع من العطاء .

وحسبك ما يروى من أخبار المحلّق الذى أخذت أمه أو عمته تلح عليه فى أن يضيف الأعشى أو يهدى إليه ناقة أبيه وبرديه وزقّاً من الخمر حتى فعل ، فأصبح عظيما ضخم الثورة .

وحسبك أن امرأة كسدت عليها بناتها ، فرغبت إلى الأعشى فى أن

يشبب بواحدة منهن لعلها تنفق ، فشبب الأعشى بإحداهن فتزوجت . ثم شبب بالثانية فوجدت قريناً ، ثم شبب بالثالثة فأسرع إليها الخاطبون ، وما زال يشبب بهن واحدة واحدة ، ويتقاضى على ذلك جزوراً حتى زوجهن جميعاً (١) .

كل هذا يدل على أن تكسب الأعشى بالشعر لم يغض منه ولا حط من قدره .

والرواة يقولون إن الأعشى كان لا يمدح رجلا إلا رفعه . يستشهدون على ذلك بقصة المحلق ، وقصة هذا الرجل الكلبي الذى هجاه الأعشى فوضعه ، وظفر الكلبي بالأعشى مرة فكاد يقتله لولا أن استجار بشريح بن السموءل فى القصة التى قدمناها لك (٢) .

وكانوا يقولون إنه لم يهج رجلا إلا وضعه ، يذكرون هذا الكلبي ويذكرون علقمة ابن علاثة . وله مع علقمة بن علاثة هذا خبر لا يخلو من فكاهة . زعموا أن الأعشى مدح الأسود العنسى ، ولم يكن عند الأسود نقد ، فأعطاه عرضاً من الدهن والطيب والبرود وعاد الأعشى بمتاعه . فلما كان فى بلاد بنى عامر خافهم على نفسه فاستجار علقمة بن علاثة فأجاره ، قال الأعشى : تجيرنى من الإنس والجن ؟ قال نعم . قال الأعشى : ومن الموت ؟ قال علقمة لا . فتحول الأعشى إلى عامر بن الطفيل — وكان ينافس علقمة — فاستجاره فأجاره عامر . قال الأعشى : تجيرنى من الإنس والجن ؟ قال نعم . قال الأعشى : ومن الموت ؟ قال نعم . قال الأعشى : وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال عامر : إن متّ فى جوارى أرسلت ديتك إلى أهلك . قال الأعشى : الآن عرفت أنك تجيرنى من الموت ، واتصل بعامر وفضله على علقمة فى قصيدته المشهورة (٣) :

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر

---

(١) الأغانى ج ٨ صفحة ٧٩ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) الأغانى ج ٨ ص ٨٠ .

وهجا علقمة فى قصيدة صادية يقول فيها :

تبيتون فى المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

ثم أدركه مع علقمة ما أدركه مع الكلبى ، فوقع فى بلاده وأتى به إلى علقمة ، فاعتذر واستعطف ومدح ، وعفا عنه علقمة .

والرواة يمثلون لنا الأعشى مرة فقيراً لا يجد ما يطعم به أصدقاءه ، ومرة أخرى غنيًّا له أرض فيها كروم وعنب . وهم يحدثوننا بأنه مدح سلامة ذا فائش الحميرى بلاميته التى أولها :

إنّ محلا وإن مرتحلا وإن فى السفر إذا مضوا مهلا

والتى يقول فيها :

الشعر قلدته سلامة ذا فا ئش والشىء حيثما جعلا

فأعطاه سلامة مائة ناقة حمراء وحللا وكرشاً مدبوغة قد ملئت عنبراً ، وقال له : إياك أن تخدع عما فيها . فورد الحيرة فباعها بثلاثمائة ناقة حمراء ، فاجتمع له من مدح سلامة ذى فائش أربعمائة ناقة حمراء غير الحلل [1] .

والرواة يمثلون الأعشى رحالة كثير التجوال ، وقد مدح الناس جميعاً بشعره وهم يضيفون إليه هذين البيتين :

وطوّفت للمال آفاقه عمان فحمص فأورشلم
أتيت النجاشى فى داره وأرض النبيط وأرض العجم

وأكبر الظن أن الرجل لم يطوف هذا التطواف ، ولم يأت النجاشى ولا أرض النبيط ولا أرض العجم . ولعله إن فعل شيئاً من ذلك لم يتجاوز أن مدح طائفة من أشراف العرب فى نجد والحجاز وأطراف اليمن مما يليهما وفى الحيرة وبادية الشام . ولكن الرواة يزعمون أنه وصل إلى كسرى ومدحه وأخذ عطاءه . وهم

(١) الأغانى جزء ٨ صفحة ٨٢ .

يفكهون برواية هذه القصة ، وهى أن كسرى سمعه يتغنى بقصيدته فى الحلق وأولها :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بى من سقم وما بى تعشق

فلما فسر له البيت قال : إن كان قد سهر فى غير سقم ولا عشق فهو لص[١] .

ونحن إذا حاولنا أن نحصى ما بقى من مدح الأعشى فسنرى أن كثرة هذا المدح منصرفة إلى اليمنيين ؛ فقد مدح الأعشى سلامة ذا فائش [٢] ، ومدح أهل نجران ، ومدح قيس بن معد يكرب ، ومدح الأشعث بن قيس الكندى ، ومدح الأسود العنسى [٣] ، ومدح الأسود بن المنذر أخا النعمان ، ثم مدح هوذة ابن على صاحب اليمامة وهو ربعى ، ثم فخر هو فى شعره بربيعة وموقفها من الفرس فى ذى قار فأكثر الفخر ، ولم يمدح من مضر إلا عامر بن الطفيل [٤] وإنما مدحه ليهجو علقمة خصمه ، ثم مدح علقمة حين وقع فى يده ، ومدح النبى .

فإذا صح أيضاً أنه مدح كسرى ، فقد كان الأعشى شاعر الشعوبية حقاً لا نريد أنه كان شاعرها فى الجاهلية — فلم تكن هناك شعوبية — وإنما نريد أنه كان شاعرها فى الإسلام . نريد أن هذه الكثرة من شعر الأعشى قد صنعت فى الإسلام فى الكوفة ، وكانت مظهر التحالف العصبى بين ربيعة واليمن على مضر . وما الذى يمنع القصاص والناحلين أن يستغلوا شاعراً كالأعشى عرف بأنه كان كثير المدح فيطوفوا به فى الآفاق وينطقوه بمدح الأشراف من حمير وكندة وغيرهما من القبائل اليمانية ، ثم بمدح أشراف ربيعة ، وفى هذا كله مناهضة لجاهلية مضر ، بعد أن عجزت ربيعة اليمن عن مناهضة مضر فى الإسلام وفيها النبوة والخلافة ؟

---

(١) طبقات ابن قتيبة طبع أوربا ص ١٣٧ .

(٢) الأغانى ج ٨ ص ٨٢ . (٣) الأغانى ج ٨ ص ٨٠ .

(٤) الأغانى ج ١٥ ص ٥٥ .

نعم ! مدح الأعشى عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة وهما مضريان ، ولكنى قد ذكرت لك الظروف التى كان فيها هذا المدح ، وإن شئت أن أحدثك برأيى فى صراحة وصدق فإنى أشك شكاً شديداً فى أن يكون الأعشى قد مدح عامراً أو مدح علقمة ، إنما كانت المنافرة بين هذين الرجلين ، واشتدت العصبية حولهما فى الإسلام لا فى الجاهلية ، فنحلت هذه العصبية من الشعر فى مدح الرجلين وهجائهما شيئاً كثيراً ، حمل بعضه على الأعشى وبعضه على لبيد وبعضه على الحطيئة وبعضه على شعراء آخرين . ويكفى أن تقرأ قصة هذه المنافرة فى الأغانى لترى أنها قصة قد وضعت ورصعت وزينت على نحو ما كانت ترصَّع القصص وتزين بالسجع والشعر الغريب ، ولا سيما حين تتصل هذه القصص بالأعراب . أنا إذن لا أطمئن إلى مدح الأعشى لهذين المضريين . ستقول : ولكنه مدح المحلّق الكلابى فرفعه وهو مضرى. وما رأيك فى أنى لست أكثر اطمئناناً إلى قصة المحلق منى إلى قصة عامر وعلقمة ، وإنما أخشى أن يكون مدح الأعشى كله أو ما بقى لنا من مدح من الأعشى قد نحل وصنع وتنافست فيه القيسية واليمنية والربعية ، وكانت قصيدة المحلق هذه مظهراً من مظاهر هذا التنافس . ستقول : ولكنه مدح النبي والنبي مضرى . وما رأيك فى أنى لا أشك فى أن الأعشى لم يمدح النبي ، ولا أتردد فى القطع بأن هذه الدالية التى تروى للأعشى فى مدح النبي منحولة، نحلها قاص ضعيف الحظ من الشعر ، ردىء النظم ، مهلهل اللفظ قليل المهارة فى النحل . ويكفى أن تقرأ هذه القصيدة لترى أنها أسخف ما يضاف إلى الأعشى ، وأنها ، ولا سيما المدح فيها ، إلى المتون أقرب منها إلى الشعر الجيد .

وانظر بعض هذه القصيدة :

ألا أيهذا السائلى أين يممت	فإن لها فى آل يثرب موعدا
فإن تسألى عنى فيارب سائل	حفى عن الأعشى به حيث أصعدا
أجدت برجليها النجاء وراجعت	يداها خنافاً ليناً غير أجردا
وفيها إذا ما هجّرت عجرفية	إذا خلت حرباء الظهيرة أصيدا

obeikandi.com

وأما إذا ما أدلجت فترى لها ... رقيبين جدياً ما يغيب ومزفدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفىً حتى تزور محمدا
نبي يرى ما لا ترون وذكره ... أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم ... تراحي وتلقى من فواضله يدا
له صدقات ما تغب ونائل ... وليس عطاء اليوم مانعه غدا
إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على ألا تكون كمثله ... فترصد للأمر الذى كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقربنها ... ولا تأخذن سهماً حديداً لتفصدا
وذا النصب المنصوب لا تنسكنه ... ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
ولا تقربن جارة إن سرها ... عليك حرام فانكحن أو تأبدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنه ... لعاقبة ولا الأسير المقيدا
وسبح على حين العشيات والضحى ... ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا
ولا تسخرن من بائس ذى ضرارة ... ولا تحسبن المرء يوماً مخلدا (١)

أنا إذن شديد الشك فى كل ما يضاف إلى الأعشى من المدح ، أتهمه بأنه مظهر من مظاهر العصبية فى الإسلام ، فإذا لم يكن بد من التماس شخصية للأعشى فلست ألتمسها فى هذا المدح ، وإنما ألتمسها فى غيره من الفنون التى تصرف فيها الأعشى ، وأمر هذه الفنون مختلط أيضاً .

فللأعشى غزل ، وله وصف للخمر ، وله وصف للصيد ، ولكنى أجد فى غزل الأعشى ليناً شديداً أعرفه فى شعر ربيعة ، وأعلله بالتكلف والنحل . وما رأيك فيما يروى عن الشعبى من أنه كان يقول إن الأعشى أغزل الناس فى بيت وأخنثهم فى بيت وأشجعهم فى بيت . فأما بيت الغزل فقوله :

غراء فرعاء مصقول عوارضها ... تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحل

(١) الأغانى ج ٨ صفحة ٨٢ .

وأما أخنث بيت فقوله :

قالت هريرة لما جئت زائرها ... ويلى عليك وويلى منك يارجل

وأما أشجع بيت فقوله :

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فإنا معشر نُزُل[1]

ولست أدرى أحق أن الغزل والخنوثة والشجاعة قد اجتمعت فى هذه الأبيات للأعشى كما لم تجتمع لغيره . ولكنى أعرف أن فيها ليناً شديداً يقربها من هذا الشعر الربعى الذى أشرت إليه غير مرة . وليس مطلع هذه القصيدة نفسها بأقل ليناً من هذه الأبيات :

ودِّع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

وفى هذه القصيدة نفسها أبيات لا تشك فى أنها منحولة قد قصد بها إلى العبث والدعابة ، وهى :

عُلِّقتها عرضاً وعلقت رجلا ... غيرى وعلَّق أخرى غيرها الرجل
وعلقته فتاة ما يحاولها ... ومن بنى عمها ميت بها وهل
وعلَّقتنى أخيرى ما تلائمنى ... فأجمع الحب حب كله تبل
فكلنا مغرم يهذى بصاحبه ... ناء ودان ومخبول ومختبل

على أن فى هذه القصيدة شعراً جيداً لا يخلو من متانة ورصانة . وتجد مثل هذا الشعر الجيد فى القصيدة الأخرى اللامية :

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالى وما تردّ سؤالى

ولكن أمر هذه القصيدة لا يخلو من عجب ؛ فقد بدأها الشاعر بالغزل وانتقل منه إلى الوصف ثم إلى المدح ، مدح الأسود بن المنذر ، حتى إذا قضى من هذا المدح وطره عاد إلى الغزل ثم إلى وصف الصيد فختم به القصيدة .

(١) الأغانى ج ٨ صفحة ٧٩ .

والمألوف أن يتخلص الشاعر إلى المدح فيمضى فيه حتى ينتهى من القصيدة . فأما العدول عنه إلى الغزل والوصف مرة أخرى فغريب . وأكبر الظن أن هذا المدح قد أدخل فى هذه القصيدة إدخالا ولم يكن منها ولا سيما وأنت تقرأ هذا المدح فتحس فيه روحاً عباسيًّا متأخراً .

ولولا أن هذا السفر لا يتسع للإطالة لعرضنا عليك قصيدتين أو قصائد من شعر الأعشى ، عرضاً فيه نقد وتحليل والتماس لشخصية الشاعر إن كانت له شخصية ظاهرة .

وخلاصة رأينا فى الأعشى أنه شاعر عاش فى آخر العصر الجاهلى ، وتصرف فى فنون من الشعر أظهرها الغزل والخمر والوصف ، ومدح طائفة من أشراف العرب ، ولكن العصبية استغلت هذا المدح ، ولعله كان قد ضاع فأضافت إليه مكانه مدحاً كثيراً لليمنيين والربعيين ومدحاً قليلا للمضريين. ولا شك فى أن بين هذا الشعر الذى يضاف إلى الأعشى مقطوعات وأبياتاً يمكن أن يكون الأعشى قد قالها حقًّا ، ولكن تمييز هذه الأبيات والمقطوعات مما يحيط بها من المنحول المتكلف ليس بالشىء اليسير . على أن هذا المنحول الذى يضاف إلى الأعشى مختلف أشد الاختلاف ، ففيه الجيد المتقن وفيه الضعيف السخيف ، ولعلك لم تنس ما قال ابن سلام من أن من اليسير تمييز ما ينحله الرواة والمتكلفون ، فى حين يكون العسر كل العسر فى تمييز ما ينحله العرب أنفسهم . وعندنا أنك تجد فى شعر الأعشى خاصة نماذج مختلفة لهذا الشعر الذى تكلفه العرب والذى تكلفه الرواة المتأخرون .

وهناك شعراء آخرون من ربيعة كنا نستطيع أن نقف عندهم ونلم بشعرهم إلماماً ، وننتهى فيهم إلى مثل ما انتهينا إليه فى أمر هؤلاء الشعراء الذين درسناهم فى هذا البحث القصير . ولكنا نكتفى بما قدمنا ؛ فقد ضربنا المثل . ويخيل إلينا أنا قد وضحنا وبينا وأزلنا الحجاب عن كل ما نريد أن نقوله فى موقفنا بإزاء هذا النوع من الشعر الجاهلى .

ونحن لم نقصد فى هذا الكتاب إلى أن ندرس الشعراء ولا إلى أن نحلل

شعرهم ، وإنما قصدنا إلى أن نبسط رأينا فى طريقة درس هذا الشعر الجاهلى وهؤلاء الشعراء الجاهليين ، وقد بلغنا من ذلك ما كنا نريد . فأما تتبع الشعراء شاعراً شاعراً، ودرس شعرهم قصيدة قصيدة ومقطوعة مقطوعة، فقد نفرغ لبعضه فى غير هذا الكتاب . ومهما نفعل فلن نستطيع أن ننهض به وحدنا فى عام أو أعوام ، بل لا بد من أن ينهض به معنا الذين يحبون الحق فيسعون إليه ويطلبونه .

على أنا نريد أن نختم البحث بملاحظتين :

الأولى — أن هذا الدرس الذى قدمناه ينتهى بنا إلى نتيجة إلا تكن تاريخية صحيحة فهى فرض يحسن أن يقف عنده الباحثون ويجتهدوا فى تحقيقه ، وهى أن أقدم الشعراء فيما كانت تزعم العرب وفيما كان يزعم الرواة إنما هم يمنيون أو ربعيون . وسواء أكانوا من أولئك أو من هؤلاء فما يروى من أخبارهم يدل على أن قبائلهم كانت تعيش فى نجد والعراق والجزيرة ، أى فى هذه البلاد التى تتصل بالفرس اتصالا ظاهراً ، والتى كان يهاجر إليها العرب من عدنان وقحطان على السواء .

وإذن فنحن نرجح أن هذه الحركات التى دفعت أهل اليمن من ناحية وأهل الحجاز من ناحية أخرى إلى العراق والجزيرة ونجد ، فى عصور مختلفة — ولكنها لا تكاد تتجاوز القرن الرابع للمسيح — قد أحدثت نهضة عقلية وأدبية ، لما كان من اختلاط الجنسين العربيين فيما بينهما ومن اتصالهما بالفرس .

ومن هذه النهضة نشأ الشعر ، أو قل — إذا كنت تريد التحقيق — ظهر الشعر وقوى وأصبح فنًّا أدبيًّا . وقد ذهب هذا الشعر ولم يبق لنا منه شىء إلا الذكرى . ولكن لم يكد يأتى القرن السادس للمسيح حتى تجاوزت هذه النهضة أقطار العراق والجزيرة ونجد ، وتغلغلت فى أعماق البلاد العربية نحو الحجاز فمست أهله . ومن هنا ظهر الشعر فى مضر ومن إليهم من أهل البلاد العربية الشمالية . فالشعر — كما ترى — يمنى قوى حين اتصلت القحطانية بربيعة ، ولكنا لم نعرفه ولم نصل إليه إلا حين تغلغل فى البلاد العربية وأخذته مضر عن ربيعة . ولعل هذا النحو من الفهم أصدق تفسير لنظرية تنقل الشعر فى

القبائل ، وهى النظرية التى ناقشناها غير مرة ، وأبينا أن نأخذها كما كان يأخذها القدماء . ومن هنا نستطيع أن نقول إنا تعمدنا الفصل بين شعر اليمن وربيعة من ناحية ، وشعر مضر من ناحية أخرى . فلنا فى شعر مضر رأى غير رأينا فى شعر اليمن وربيعة ؛ لأننا نستطيع أن نؤرخه ونحدد أوليته ، ولأننا نستطيع أن نقبل بعض قديمه دون أن تحول بيننا وبين ذلك عقبة لغوية عنيفة .

وسترى أن الشعراء الجاهليين من مضر قد أدركوا الإسلام كلهم أو أكثرهم فليس غريباً أن يصح من شعرهم شىء كثير .

الثانية — أن الذين يقرءون هذا البحث قد يفرغون من قراءته وفى نفوسهم شىء من الأثر لهذا الشك الأدبى الذى نردده فى كل مكان من الكتاب . وقد يشعرون مخطئين أو مصيبين بأننا نتعمد الهدم تعمداً ، ونقصد إليه فى غير رفق ولا لين . وقد يتخوفون عواقب هذا الهدم على الأدب العربى عامة ، وعلى القرآن الذى يتصل به هذا الأدب خاصة .

فلهؤلاء نقول : إن هذا الشك لا ضرر منه ولا بأس به ، لا لأن الشك مصدر اليقين ليس غير ، بل لأنه قد آن للأدب العربى وعلومه أن تقوم على أساس متين . وخير للأدب العربى أن يزال منه فى غير رفق ولا لين ما لا يستطيع الحياة ولا يصلح لها ، من أن يبقى مثقلا بهذه الأثقال التى تضر أكثر مما تنفع ، وتعوق عن الحركة أكثر مما تمكن منها .

ولسنا نخشى على القرآن من هذا النوع من الشك والهدم بأساً ؛ فنحن نخالف أشد الخلاف أولئك الذين يعتقدون أن القرآن فى حاجة إلى الشعر الجاهلى لتصح عربيته وتثبت ألفاظه . نخالفهم فى ذلك أشد الخلاف ؛ لأن أحداً لم ينكر عربية النبى فيما نعرف ، ولأن أحداً لم ينكر أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه تتلى عليهم آياته . وإذا لم ينكر أحد أن النبى عربى ، وإذا لم ينكر أحد أن العرب قد فهموا القرآن حين سمعوه ، فأى خوف على عربية القرآن من أن يبطل هذا الشعر الجاهلى ، أو هذا الشعر الذى يضاف إلى الجاهليين ؟ وليس بين أنصار القديم أنفسهم من يستطيع

أن ينازع فى أن المسلمين قد احتاطوا أشد الاحتياط فى رواية القرآن وكتابته ودرسه وتفسيره ، حتى أصبح أصدق نص عربى قديم يمكن الاعتماد عليه فى تدوين اللغة العربية وفهمها . وهم لم يحفلوا برواية الشعر ولم يحتاطوا فيها ، بل انصرفوا عنها فى بعض الأوقات طائعين أو كارهين ، ولم يراجعوها إلا بعد فترة من الدهر وبعد أن عبث النسيان والزمان بما قد كان حفظ من شعر العرب فى غير كتابة ولا تدوين . فأيهما أشد إكباراً للقرآن وإجلالا له وتقديساً لنصوصه وإيماناً بعربيته : ذلك الذى يراه وحده النص الصحيح الصادق الذى يستدل بعربيته القاطعة على تلك العربية المشكوك فيها ، أم ذلك الذى يستدل على عربية القرآن بشعر كان يرويه وينحله فى غير احتياط ولا تحفظ قوم منهم الكذاب ومنهم الفاسق ومنهم المأجور ومنهم صاحب اللهو والعبث ؟

أما نحن فمطمئنون إلى مذهبنا ، مقتنعون بأن الشعر الجاهلى أو كثرة هذا الشعر الجاهلى لا تمثل شيئاً ولا تدل على شىء إلا ما قدمنا من العبث والكذب والنحل ، وأن الوجه — إذا لم يكن بد من الاستدلال بنص على نص — إنما هو الاستدلال بنصوص القرآن على عربية هذا الشعر لا بهذا الشعر على عربية القرآن .